مَصْدُرُ الحقيقةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

شامل سفر

مَصْلُ الحقيقةِ

وحكايات ..

دَارُ المَكْتَبِيّ

الطبعة الأولى

2018-1439

جَمِيعُ الحقُوق مَحفُوظَة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار الكتبي.

دار الكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

الكازينو

جلست في ركنٍ من صالة الكازينو وهي تفكر؛ لا يهمها أبداً إنْ كان يحبها فعلاً أو لا يحبها .. يكفي أنه يريد جسدها فقط. وعلى كل حال فهي أيضاً لا تحبه، ولا يهمها أن يعرف أنها لا تحبه. النظرات القليلة التي ترسلها إليه، يقابلها بنظرات كثيرة ... نفس القصة القديمة.

التجاوب الواضح من طرفه؛ مع أي إشارةٍ منها كان مُرضِياً لها ... كل بضع دقائق نظرة أو لفتة؛ توحي له من خلالها بأشياء يقوم خياله بتضخيمها، فيسارع هو إلى إبداء تفاهمٍ ضمنيٍّ وكامل.

حوار الطُّرشان الذي كان يدور بينهما بصمت، كان هزلياً .. فلسانُ حالها كان يقول: «أنت تكاد تموت كي تحصل على جسدي، وأنا لن أمانع .. لكن ليس بسرعة؛ لا بد من أن أتأكد أولاً من أنك ستصل

إلى مرحلةٍ تكون فيها مستعداً للدفع .. للإنفاق .. لا لمرة واحدة، بل لمراتٍ ومرات، طيلة حياتك» ... لسانُ حاله المزرية كان يردد: «موافق .. موافق سلفاً على كل شروطك .. فقط تعالي».

مستوى هذا الكازينو من نوع خاص ... ممنوع دخول الرجال ـ عفواً: الذكور ـ إلا بالطقم وربطة العنق. وأما الإناث فمن المحظور عليهن الدخول بملابس فاضحة جداً. هذا ليس كاباريه يقدّم العروض الراقصة العارية إلا قليلاً، ولا ملهى شعبي يُسمح فيه بصعود السُّكارى إلى خشبة المسرح كي ينثروا أوراقاً نقدية فوق رؤوس الراقصات، كما أنه ليس مكاناً عمومياً لممارسة الدعارة .. هذا مكانٌ ـ في نظر روّاده ـ محترم.

المراهنة اليومية على ضربة حظ، بين كل تلك الحسناوات، في أجواء ساحرة من الموسيقا الهادئة

والأضواء الخافتة، والخدم يروحون ويجيئون بكؤوسٍ تُدير الرؤوس ... إدمانٌ يوميّ يلخّص حالَ روّاد ذلك المكان المختنق بدخان السيجار.

الكوميدي في القصة كلها، هو أن أحداً من الزبائن المداومين، وطيلة تاريخ هذا المكان، لم يكن يحصل، ولا لمرة واحدة، لا على ضربة حظ ... ولا حتى على واحدةٍ من الحسناوات.

من أولئك المداومين، طبعاً .. صاحبنا ذو النظرات الكثيرة ... كان تاريخه الشخصي والعملي، طافحاً بالكذب والنفاق والاحتيال، ثم بالكذب على النفس، وبممارسة التدليك لمواضع الألم .. الألم الذي كانت الفطرةُ السليمة تناضل كي تجعله يشعر به، دون فائدة. كان قد وصل إلى مرحلة موت القلب .. لا السريري، كما يقول الأطباء، بل إلى تلك الحالة الشهيرة والمنتشرة التي يكون فيها القلب مجرد

عضلة لا إرادية تنبض كي يصل الدم إلى أرجاء الجسد، لا أكثر ولا أقل ... تلك المضغة إنْ صلحت أو لم تصلح، لم يكن الأمر يهمه كثيراً.

جلس صاحبنا إلى طاولة الروليت .. تعمّد أن يختار زاويةً من الطاولة تسمح له برؤيتها على الطاولة المجاورة. وكما في كل يوم، وضعَ رهانه على نفس الخانة الرقمية التي كان يراهن عليها الرجلُ الضخم المنتفخ؛ ذلك الزبون المداوم الذي يكاد صاحب الكازينو أن يعبده .. أن يسجد له! ... عملياً ـ وكما كان صاحب الكازينو يعرف تماماً ـ الأمرُ كان معكوساً ... فالمنتفخ هو الذي كان عبداً لصاحب الكازينو.

صاحب ذلك الكازينو كان مخلوقاً مثقفاً، ذا مقدرات عقلية قوية. وكانت رؤيته لسلوك الزبائن من بعيد، عبر سنواتٍ وسنوات، قد أكسبته خبرةً في تحليل السلوك البشري. كان يراهم هو وقبيله .. هو

وموظفوه .. من حيث لا يرونه. وكيف يرونه وقد انغمسوا في مراقبة دوران دولاب الروليت حتى عميت البصيرة ؟! ... كيف يرونه وقد تشوَّش البصر بفعل ذلك السائل المعتّق الذي لا يتركونه إلا كي يفرغوا زوائده في بيوت الخلاء؟! .. كيف كان لهم ولأمثالهم أن يستوعبوا أن صاحب هذا الكازينو الكبير، إنما هو صاحب أكبر مؤسسةِ إفسادٍ لا ربحية في تاريخ البشرية ؟!

وكملاحظة على الهامش، كان صاحب ذلك الكازينو يختلي بنفسه كل يوم؛ يقفل على نفسه الباب، ويبدأ بممارسة طقوسه الخاصة التي لا يعلم بها أحد. كان يشد شعره بعنف حتى يُدمي جِلْدَ رأسِه .. يغرس أظافره في جلد وجهه بقوة الحقد ... يصرخ بصوتٍ لا يسمعه أحدٌ من بني آدم .. ويبكي. وعلى الرغم من أن مشروعه التجاري كان رائجاً جداً، والكازينو يعمل كل

يوم بشكل ممتاز، إلا أن العوائد والأرباح كانت تُكدَّس في حسابٍ مصرفي من نوعٍ خاص .. من نوعٍ مؤلم .. من نوعٍ غريب. ذلك المخلوق لم يكن يستطيع التصرف بالمال؛ هكذا خُلِق.

والأدهى أنه كان يعلم تماماً ما هي نهايته .. ما هو مصيره .. هناك؛ حيث لا مال ولا أعمال. كل ما هنالك أنه طلبَ تأجيل الحكم المبرم، فأُجيب طلبه. ثم إن كل ما كان يريده من خلال ذلك الكازينو، هو أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأغبياء؛ يشاركونه نفس النهاية ... العذاب الأبدي.

ناجحٌ في عمله .. نعم ... ذو مقدرات ومهارات، صحيح ... لكنه كان يعترف في قرارة نفسه بالغباء بعيد المدى. ففي يوم من الأيام، سَمَحَ لِتكبُّره أن يغلب عقله؛ بقرارٍ ذاتيٍّ فادح الثمن .. سَمَحَ لشهوة الاستعلاء أن تمحو عقله؛ ورفض أن تسجد نارُه

للطين ... حسناً، ها هم أحفاد الطين الآن يسمحون لشهواتهم وتكبّرهم أن تمحو عقولهم .. نفس الغباء، لكن بنكهةٍ طينية.

شيءٌ واحد كان يقضُّ مضجعَ صاحبِ ذلك الكازينو .. أنّ بعض زبائنه ـ ولسببٍ غير معروف ـ كان يغادر الكازينو فجأة، ولا يعود إليه أبداً. فإذا أرسل إليه صاحب الكازينو من يسأل عنه ويذكّره، كان ذلك الزبون يطرده شرَّ طردة.

إضافةُ زبائن جدد، كان موضوعاً يحتاج إلى دعاية وإعلان ... وبطبيعة الحال، تكفّل بهذه المهمة الأغبياءُ من زبائنه القدامى المداومين. كانوا دعايةً متنقلة، إنْ صحَّ التعبير.

على طاولة الروليت في تلك الليلة .. خسر صاحبُنا الذي كاد يموت كي يحصل على جسدها؛ خسر كثيراً ... حتى الرجل الضخم المنتفخ كان يخسر

أحياناً. ولكن الناس مقامات .. فصاحبنا كان يخسر مبالغ تُعتبر بالنسبة للمنتفخ مجرد فتات وفئات نقدية صغيرة.

وعندما كادت النقود التي بحوزته أن تنفد .. أدركت هي أن الوقت قد حان، وأن الزبون قد نضج على نار هادئة ... خسارةٌ، وحزنٌ، وحاجةٌ إلى صدرٍ حنون يواسي، وندمٌ على فقدانِ مالٍ كان من الممكن أن يكون ثمناً لها؛ بدل هذه اللعبة السخيفة اللعينة .... قامت من مكانها، وجلست إلى جانبه، وقالت كلمتين فقط: مساء الخير.

بعد بضعة أيام، نشرت إحدى الصحف خبرَ الزواج السعيد. وحَرِصَ محررُ الإعلانِ أن يذكر بوضوح أن الحفل قد أقيم في صالةٍ تابعة لنفس الشركة المالكة للكازينو .. الكازينو الشهير ... المعروف بِاسم: كازينو الدنيا.

«لماذا؟ ... هذه الكلمة هي مِن الكلمات الأكثر وروداً على ذهن كل إنسان، ومن أقلِّها حظاً في الحصول على إجابة. لا لأن عقلَ الإنسانِ عاجزٌ، بل لأنَّ له حدوداً يقف عندها؛ ولا يملك إلا أن يسجد لخالقه العليم الحكيم .. ألا وإنَّ العقلَ لَيَسْجُد .... أراكم الأسبوعَ القادم بإذن الله».

ضَجَّت القاعةُ بالتصفيق، كما يحصل في نهاية كل محاضرة ... احمرَّ وجهُ الدكتور فائز حياءً وهو يلملم أوراقه استعداداً لمغادرة القاعة. حاول أن يثني الطلاب عن التعبير عن إعجابهم؛ بحركةٍ لطيفةٍ من يده، لكنهم استمروا.

لطالما رجا فائز طلابه أن يكفّوا عن موضوع التصفيق هذا، لكن دون فائدة. أفهمهم بصراحة أن إدارة الجامعة عبَّرت له عن قلقها وتحفُّظها، لكن

الشبان والشابات لم يتجاوبوا ... المحبةُ إذا سكنت القلوبَ استعصت على الكبت.

الطريق التي يسلكها كلَّ أسبوع، عائداً إلى بيته .. بدءاً من أروقة الكلية، مروراً بحديقة الجامعة، وصولاً إلى بيته في الحارة الدمشقية القديمة ... تلك الطريق أَلِفَها فائز وأَلِفَتْه. اعتاد على نظرات الناس والطلاب، بل والأساتذة، خصوصاً زميلاته من المدرِّسات والمُعيدات ... تلك النظرات كانت تحكي الكثير.

لماذا لم يتزوج الدكتور فائز .. كيف يعيش وحيداً وقد اقترب من سن التقاعد .. هل يُعقل أن تكون له ميول غير طبيعية ... الناسُ منذ القِدَم، لا تترك أحداً وشأنه.

ـ أهلين أستاذ .. تفضّل.

ردَّ على تحية أبو أحمد البقّال، جاره القديم، بابتسامةٍ وتحية .. ثم وضع المفتاح في الباب القديم.

عبرَ الممرَّ القصير الذي إلى يمينه غرفةٌ صغيرة يستقبل فيها ضيوفه، إلى أرض الديار .. فتح صنبور الماء على البحرة، ثم تابع باتجاه الباب المقابل للممر، والمفضي إلى غرفةٍ ثانية جهةَ اليسار؛ يواجهها مطبخٌ صغير بجانبه حمّام.

في البيت غرفٌ أخرى، لم يعد فائز يستعملها منذ زمنٍ بعيد .. الـ (صاليا) .. والـ (مربَّع) ... حتى الغرف الثلاث التي في الطابق الثاني، باتت مخزناً للذكريات .. وذكريات الدكتور فائز كثيرة؛ تسبب له أحياناً ضغطاً زائداً لا يزيل آثارَهُ إلا الذِّكرُ والصلاة.

«اللّٰهُمَّ اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهرين». الوضوء من ماء البحرة في أرض الديار صيفاً، أحدُ مُتَعِ الحياة عند الشُّوام. ثم الصلاة على البلاط الطاهر النظيف، بدون سجّادةٍ أحياناً، وكلُّ ما حول فائز يسبِّحُ بِحمد الواحد المنَّان ... الياسمين

العَراتلي، والكبّاد، والنارنج، والعصفور الدُّوري ... حتى صوت ابن الجيران الصغير الذي يرتّل آياتٍ من القرآن الكريم بصوتٍ مسموع يصل إلى آذان فائز من بيتٍ مجاور، وأمُّه تصحِّح له من بعيد ـ كلَّ حين ـ مَخرج حرفٍ أو حُكماً تجويدياً.

«اللّٰهُمَّ إني راضٍ بما قسمتَهُ لي، فَزِدْني رضىً. اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك مما أَجِدُ. اللّٰهُمَّ لم ترزقنيها فلكَ الحمد. ربِّ ارزقنيها يا أرحم الراحمين» ... هكذا دعا فائز؛ كما يدعو في السجدة الأخيرة من كل صلاة.

لو أُتيح لأحدٍ من الناس أنْ يضع ميكروفوناً صغيراً في مكانٍ خفيّ بالقرب من رجلٍ يصلّي، واستمع لِمَا يقول، لَمَا فهم من دعاء ذلك العبد إلا القليل ... الضمائر المتصلة بالأفعال لا يعرف عائديّتَها أحدٌ من المخلوقين، ولا حتى الملائكة .. لا يعلم معناها إلا الله السميع العليم.

أما (إني راضٍ) هذه .. فلطالما جَهِدَ فائز كي يمكّنها في قلبه. ظلَّ لِسنوات يجاهد نفسه كلما عبّرت له عن تململها أو رفضها، ولهذا أَتْبَعها بالتعوّذ مما يجد. وأما (لم ترزقنيها) التي أَتْبَعها بالحمد، فتلك قصةٌ أخرى .. تلك قصةُ حُبٍّ عمرها يقرب من نصف قرن.

أنْ يحمدَ اللهَ إنسانٌ على أنه لم يتزوج من الإنسانة الوحيدة التي أحبها طوال عمره .. قد يبدو هذا الأمر لبعض الناس سهلاً، في حين لا يعرف حلاوةَ معاناتِه .. نعم؛ حلاوتَها .. إلا قِلَّةٌ من الناس. وأستاذُ تاريخ الفكر في الجامعة، الدكتور فائز ... لم يكن يجرؤ، ولا حتى في سِرِّهِ، على أن يَحمَدَ اللهَ على أنه واحدٌ من أولئك القِلَّة .. كان يسألُ اللهَ أن يجعله منهم؛ حقاً وصدقاً .. عسى أن يصبح في يومٍ من الأيام من الحَمَّادين على كل حال.

القيلولة .. تلك الدقائق التي يُعاوِد الشريطُ السينمائي التسجيلي خلالها، عَرْضَ نفسهِ أمام ناظرَي خيالِ فائز ... دارُ العرضِ في الهواء الطلق .. أرضُ الديار؛ تلك الفسحة السماوية التي لا يخلو منها أيُّ بيتٍ شاميٍّ مبنيٍّ على الطراز التقليدي ... الموسيقى التصويرية من تأليف شحرورٍ يُحسِنُ التوزيعَ الموسيقي كأجمل ما يكون .. العرض اليومي بعنوانه الدائم .. ذكريات.

على الأريكة المعدنية المفروشة بوسائد محشوّة بالقطن، والتي اعتاد على الاستلقاء عليها بعد صلاة الظهر من كل يوم ... اضطجعَ فائز على شِقِّهِ الأيمن .. أغمض عينيه ... بدأ العرضُ.

حنان .. «يا له من اسم» ... يا له من اسمٍ لامرأة؛ لا يعرف مدى عمقه وجماله ودفئه إلا رجلٌ قارب الستين من العمر، يعيش وحيداً .. وما زال يحبها.

حفنةٌ من الياسمين .. لا ... الحفنةُ لفظٌ لا يليق إلا بالتراب .. لِنَقُلْ أنها (كَمْشَةٌ) من ياسمين؛ كما يحلو للدمشقيين أن يقولوا ... قطفتها طفلةٌ في السابعة أو الثامنة من عمرها، اسمها: حنان؛ أعطتها لابن الجيران الذي جاء إلى بيتهم برفقة والدته الحاجّة أم فايز، في زيارةٍ صباحَ أحدِ الأيام منذ نصف قرن ... بضع ياسمينات بيضاء، لم يكن شيءٌ في الدنيا أجمل من بياضها، إلا بياضُ اليدِ الصغيرة الحلوة التي امتدت ببراءة كي تهديها للضيف الصغير .. فبدأت القصة.

بدأت القصةُ؛ وبطلُها لم يُجاوز العاشرةَ من عمره .. قصةٌ عنوانُها أنّ البنت تَكبُر قبلَ الشاب .. وفصولُها تحكي عن ظروف المعيشة والعمل والدراسة .. وذروةُ أحداثِها أصواتُ زغاريد سمعها طالبٌ في السنة الأخيرة من دراسته الثانوية؛ على وشك التقدُّم

للامتحان النهائي ... زغاريدُ كانت أذنا فائز تسمعُها وهي قائلةٌ له: ما لكَ نصيب .. لقد قُضِيَ الأمر.

وقتَها .. لم يَعُدْ للدراسةِ طعمٌ .. ولا للمثابرةِ حافز ... حتى ورقُ الكتب، لم يعد فائز يشمُّ منه تلك الرائحة التي يحب .. لقد ذهبت حنان .. وذهب معها الحنان.

وبما أن كل ما يذهب يأخذ معه أموراً عديدة .. فقد ذهبت فكرةُ دراسة الطب، التي كان أبو فايز يمنّي نفسه بها كلما رأى ابنه ساهراً في غرفته يدرس ويحفظ.

«لماذا؟» .. منذ ذلك الحين، صار لهذه الكلمة عند فائز، مكانةٌ خاصة ... «لماذا أدرسُ الطب؟! .. لماذا أعالج الأجساد، في حين تحتاج النفوس إلى علاج؟! .. ثم لماذا لم يرأفوا بحالي .. وأخيراً، لماذا لا أثورُ على كل شيء؟!». وهكذا كان.

ظهرت نتائج الثانوية العامة .. فَرِحَ الجميعُ إلا فائز .. فائز الذي تلقّى التهاني ببرود ... وبعد يومين وقعت الواقعة. عاد فائز إلى البيت، وفي يده أوراق ... لم تكن أوراقَ القبول في كلية الطب .. بل في كلية الـ ... فلسفة !

وللمرة الأولى في تاريخ الحارة، سمع الناسُ صوتَ أبو فايز وهو يصرخ غاضباً .. هاجَ الناسُ وماجوا .. لقد جُنَّ فائز ... معدّل نجاحٍ يؤهّل للحصول على كلمة (دكتور) بعد بضع سنوات .. ثم ماذا؟! .. أستاذ! .. وفي ماذا .. في الفلسفة! .. في الكُفْر!!

تدخَّلَ العقلاء من أهل الحارة، وعُقِدَت اجتماعات، وأُسْدِيَت نصائح .. وفائز مُصِرٌّ على رأيه. لكن أحداً لم يكن يتوقّع ذلك الجوابَ النهائي الذي كان فائز قد أعدَّهُ لِحَسمِ المسألة لِصالحه ... وكأن الحرمان الشخصي يزيد صاحبه تَعُقُّلاً.

انتظر فائز حتى هدأت العاصفة .. مارس سياسةَ الصمتِ أثناء انتظاره .. ثم دعا - هو هذه المرة - لِعَقدِ اجتماعٍ لِعُقلاء الحارة ولرجال العائلة. وأوصى أمه أن تستقبل النساء في غرفةٍ قريبة، وأن تجعلهن يَسكُتن .. كان لدى فائز ما يقوله.

ولأول مرةٍ في حياته، وقفَ ابنُ الثامنة عشرة، كي يتكلم في حضرة أبيه .. لكنه لم يتكلم بالعامّية!

بدأ خطبتَهُ كما يجب .. حمدَ اللهَ تعالى، ثم صلّى على نَبيِّهِ الكريم عليه الصلاة والسلام .. ثم قال خطبته القصيرة: «أما بعد، فإني أرجو من سيدي إمام مسجد حارتنا، حفظه الله، أن يمتحنني في مدى حفظي لِكتاب الله العظيم ... يا شيخَنا، اتلُ أيةَ آيةٍ تريد، وأنا سأكمل إنْ شاء الله».

المفاجأة أسكتت الجميع .. لم يكن فائز حافظاً لِكتاب الله، وحسب .. بل مُتقِناً مُجوِّداً وعلى أعلى

مستوى. جَرَّبَهُ الشيخُ في المتشابه من الألفاظ، فنجح .. سأله عن قراءاتٍ غير مشهورة بين العامّة، فأجاد .. امتحنه في الإعراب، فذكر الشابُّ أقوالاً للمتقدمين والمتأخرين في مسائل اللغة ... ثم لمَّا اختبره بسؤالٍ في التفسير، وقال فائز: «أيُحِبُّ شيخُنا أن أبدأ بما قاله القرطبي أم الرازي؟» .. نهضَ إمامُ الجامعِ، وقَبَّلَ الشابَّ وهو يبكي .. ثم قال وهو يُغالِبُ دموعه: «يا أبو فايز .. دَعْ هذا الشاب يدرس ما يريد، فواللهِ إنّي لَأتمنى لو أنَّ لي ولداً مثله» .. وحُسِمَت المسألة.

السِرُّ كان يكمن في العطلات الصيفية. لم يخطر لأحدٍ على بال، أن فائز، بعد أن حُجِبَتْ عنه حنان التي بدأت تَكبُر .. لم يَعُدْ يُطيقُ البقاء في البيت ولا في الحارة، أثناء الصيف والعُطَل .. وأنه فَضَّلَ آنذاك أن يقضي أوقاته هناك؛ لدى أخواله في الريف. باحَ بمكنون صدرِهِ لخاله عاصم الذي كان من حَمَلَةِ

القرآن، فأوصاهُ خالُهُ بثلاث: الصبر والصلاة وحفظ القرآن الكريم .. وظلَّ فائز يقرأ على خاله حتى أتقنَ وأُجيز. لكن المشكلة أن عاصم لم يكن من هواة علم الكلام والأخذ والرد، في حين كانت لدى الفتى أسئلةٌ كثيرة.

ومضت سنوات، وحقق فائز حلم أبيه، فَحَمَلَ لقبَ الدكتور، ولكن في اختصاصٍ آخر. استهواه البحث في المراحل التي مرَّ بها العقلُ البشري، فاختار تاريخ الفكر موضوعاً لرسالته في الماجستير. ثم أشبع حقبةً معينة من تاريخ الفكر الإسلامي؛ بحثاً ودراسة في رسالته للدكتوراه، حتى نالها بدرجة الامتياز من مرتبة الشرف.

التاريخ يسمح للعقل البشري أن يرى الصورة الإجمالية .. أنْ يُحَلِّقَ على ارتفاعٍ كافٍ للرؤية العامة. وفائز لم تكن تهمّه التفصيلات. كان مؤمناً بأنَّ

وراء كلِّ حدثٍ ـ مهما كان صغيراً ـ حكمةً إلهيةً بالغة .. لا تظهر أحياناً ... لكنها تظهر في أحيانٍ أخرى، بعد حقبة من الزمن. تلك كانت الكلمة المفتاحية ... (بعد حقبةٍ من الزمن)، وهذا لا يمكن فَهْمُهُ إلا بالتحليق على ارتفاعٍ كافٍ.

خلال رحلاته الجوية في أجواء تاريخ الفكر البشري، فَهِمَ فائز الكثير، وغاب عنه الكثير ... صِيَغُ الـ (لماذا) الكثيرة التي كانت تُلِحُّ على ذهنه، لم يَعُدْ لغالبيتها وجودٌ؛ بعد أن عرف الإجابات ـ لا عليها كلها ـ بل على غالبيتها فقط ... وما بقي إلا سؤالان .. سؤالان لم يكن فائز يجرؤ على طرحهما للنقاش في أيٍّ من محاضراته، ولا حتى في نطاق معارفه الشخصيين القليلين جداً.

الـ (لماذا) الأولى أمرٌ شخصيٌّ قديم، لن يناقشه فائز مع أحد .. لماذا خَفِيَتْ عليه إلى الآن الحكمةُ من

ذهاب حنان ... لطالما ردَّدَ مقولةَ ابنِ عطاء الله السكندريّ عن أنَّ الحرمان قد يكون عينَ العطاء. لكنه في قرارة نفسه، كان يتوق لمعرفة السبب.

نسختان من حرف الهاء ... الأولى تعود على حنان، التي تَعِبَ فائز حتى وصلَ إلى مرحلة الرضى والتسليم بأنها ليست من نصيبه، لكنه يودُّ أن يفهم الحكمة .. أن يعرف السبب. ولهذا كان، كلما قال في دعائه: «اللّٰهُمَّ لم ترزقنيها، فَلَكَ الحمد»، إنما كان يعني حنان. وعندما يُتْبِعُها بالقول: «اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك مما أَجِدُ» ... إنما كان يتعوّذ بالله من النسخة الشيطانية المُستَنسخة من الـ (لماذا)، لا مِن نسختها البشرية الطبيعية والمُحِقَّة ... الإنسان المؤمن ـ كلما تساءل عقلُهُ: لماذا؟ ـ يجيبُهُ إيمانُهُ الإجابةَ الصحيحة، فيسارع الشيطان لإضافةِ سؤالٍ إلى سؤال ... فلماذا إذن؟! .. ولِمَ لا؟! ... ولماذا لا يكون؟!

تململَ جسدُ فائز على الأريكة .. بدأ يستفيق من قيلولته التي لم تكن ـ كالعادة ـ إلا نصفَ إغفاءة ... «سبحانكَ لكَ الأمرُ مِن قَبْلُ ومِن بعد .... لا إله إلا أنت سبحانك، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك».

تَحَوَّلَ فائز عن وضعية الاضطجاع على شِقِّهِ الأيمن .. استلقى على ظهره قليلاً، عَلَّهُ يُلَيِّنُ عضلاتِ ظهره قليلاً قبل أن يقوم ... تأمَّلَ زُرقةَ السماء التي بدت له من الفتحة السماوية في أعلى أرض الديار ... «رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً .. سبحانك .. فَقِنا عذابَ النار».

في الأذكارِ كلماتٌ مفتاحية .. فَبَعْدَ الإقرارِ بالحقيقة الكبرى، تسبيحٌ ثم تَعَوُّذٌ من النار ... وكأن الحبيبَ ﷺ كان يُرسي دعامةً مِن دعامات المنهج الفكري، من خلال تعليمنا لهذا الذِّكْر الذي كان يقوله كلما نظر إلى السماء ..... النظرُ أولاً؛ ممارسةً

لِعبادة التفكُّر والتأمُّل .. ثم الإقرار؛ لأنه يستحيل أنْ تكون كلُّ هذه العَظَمَة والإحكام باطلاً .. وبعد ذلك التنزيهُ والتمجيد؛ هرباً من ضيق حدود العقل البشري إلى سِعَةِ الإيمان بالقدرة الحكيمة .. والختامُ بالتعوُّذِ من النار؛ استغفاراً من ذنوب الوهم والظنِّ الخاطئ.

بَيْدَ أنَّ الفِتَن على درجات .. فبعدما كان فائز يَصِلُ إلى هذه النتيجة، في كل مرة .. كان السؤالُ يُعاوِدُه .. يتراجع تكتيكياً لِمسافةٍ ما .. ثم يعاود الهجومَ بِصيغته الشيطانية: لماذا ؟ .. لماذا ؟

ولم يكن من حَلٍّ في وسع فائز إلا الهروب .. لا جُبناً .. بل فِراراً إلى الله ... «اللّهُمَّ ارزقنيها».

تلك هي الهاء الثانية .. عائديّتُها أملٌ عظيم ... الشهادة. كان فائز يرجو رَبَّهُ ـ في كل صلاة ـ أن يرزقه الشهادة؛ فوزاً عظيماً .. وهرباً من فتنة ذلك السؤال

اللعين: «لماذا؟». لكنه اليوم .. اليوم بالذات؛ في بعدِ ظُهْرِ يومٍ صيفيٍّ من عام 2016 ... أُلْهِمَ الدعاءَ بصيغةٍ مختلفة .. وَقَعَ في قلبه أن هذا السؤالَ قد صار مَرَضاً مزمناً .. فأجرى الله على لسانه: «اللّهُمَّ ارزقنيها وقد شفَيتَني يا أرحم الراحمين».

هَمَّ فائز بالنهوض .. لكن الأحداث تتالت بسرعة، وفي ثوانٍ قليلة .. فجأةً سكت الشحرور عن أدائه للموسيقى التصويرية .. هربت الـ (ستيتيَّات) بسرعة .. وبدأ صوتُ صفيرٍ يقترب من المكان بسرعة .. ولِثانيتين أو ثلاث، حاول فائز أن يفعل شيئاً، فلم يستطع .. ثم وقع الانفجار.

حَمَلَتْ قذيفةُ الهاونِ التي سقطت من الفتحة السماوية، كلَّ حِقدِها وكراهيتِها وسُمومِ سَوادِها، وانْقَضَّت بها على أرض الديار .. لم يعد فائز يرى شيئاً، ولا يسمع شيئاً إلا طنيناً في أذنيه ... الطنينُ

الذي وجدَ فيه ـ على الأقل ـ دليلاً على أنه ما زال على قيد الحياة .. لكنه لم يعرف أين هو؛ في أي مكانٍ من أرض الديار ...

حاولَ فَتْحَ عينيه، فَفُتِحَت الأولى بصعوبة، وأَحَسَّ بحرارة الدم؛ يغطّي الثانية ... لم يعرف هل يسيل الدم منها، أم يسيل عليها من جرحٍ في رأسه .. حاول تحريك يده فلم يستطع؛ ارتطمت يده بشيءٍ ما .. نجح في تحريك الثانية بصعوبة. ثم أدرك أن انفجار القذيفة اقتلعه من على الأريكة ورمى به إلى ما بعد البحرة بقليل .. عرفَ ذلك عندما استطاع بصعوبة أن يرى بعينٍ واحدة، بابَ غرفةِ الـ (صاليا) الذي انفتح بقوة الضغط، وتناثرت بعضُ أغراض الغرفة حوله وهو ممدَّد على بطنه؛ على الأرض.

«يا رب» .. قالها وهو يحاول دَفْعَ نفسِهِ بقوة رجليه، فلم يُفْلِح .. وبدأ الطنين يتلاشى نوعاً ما،

فسمع بعضَ أصوات الجيران ورجال الحارة، وكأنها آتيةٌ من بعيد ... ثم بدأ الإحساس بالألم في البطن يُنْذِرُ بقرب النهاية .. أدار عينه باتجاهٍ آخر ... كان الدم الطاهر يمارس آخرَ مهمةٍ له على وجه الأرض.

سال الدمُ باتجاه واحدٍ من أحواض الزريعة؛ وكأنه يعرف طريقه إليها .. سالَ بهدوءٍ نبيلٍ مُوَدِّع؛ يودُّ لو يسقيها نفسه قبلَ أن يجف.

حَرَّكَ فائز عينَهُ السليمة؛ عَلَّهُ يجد هاتفه الجوَّال .. لكنه رأى شيئاً آخر .. رأى ما لم يكن في حسبانه أنه سيراه أبداً ... صندوق الصَّدَف الصغير الخاص بوالدته ... كان محفوظاً في أحد جوانب الـ (يوك) بالغرفة التي خَلَعَ الانفجارُ بابَها، لكن ضغطَ حقدِ القذيفة بعثرَ كلَّ شيءٍ .. تقريباً .. فتناثرت الأغراض والذكريات على الأرض حول فائز .. فائز الذي ما زال ممدداً على الأرض؛ لا يستطيع الوقوف.

مَدَّ يده ببطءٍ، وهو يُغالِبُ ألمه، نحو محتويات الصندوق الذي باحَ بِمَكنونه؛ مُرغَماً على أمره ... سُبْحَةُ حَبَّةِ القُدْرَة .. خاتمٌ وحيد بِحَجَرِهِ الفيروزي الأزرق .. كُتيّبات الأدعية .. ودفترٌ صغير.

كان الدفترُ الصغير مطبوباً على الأرض؛ وقد انفتح على صفحةٍ بعينها .. وكأنه يُغري فائز بممارسة مهمته الأولى في هذه الحياة الدنيا؛ ولو في أواخر لحظات حياته .. القراءة.

«يرحمُكِ الله يا أمي» .. قالها فائز جهراً وهو يَجْهَدُ في محاولةِ قلبِ الدفتر بيدٍ واحدة ... ثم في سِرِّه: «يا ليتني أَجِدُ شيئاً كَتَبَتْهُ وهي تترضّى عليَّ» ...

اختلطت بقايا الطنين الذي بدأ يتلاشى في أذنيه، بأصوات طرق الجيران على الباب، وبأصوات أهل الحارة .. كانت يدهُ قد نجحت أخيراً في قَلبِ الدفتر الصغير .. سَحَبَهُ بصعوبةٍ، وقرأ ... قرأ الإجابةَ

على الـ (لماذا) الصغرى .. والكبرى .. بل على كل التساؤلات.

الإجابةُ مكتوبةٌ بخط يد الحنونة .. أم فايز التي كانت ـ بالكاد ـ تتقن القراءة والكتابة ...«حنان بنت جارتنا أم عادل .. خمس رضعات مشبعات. صارت حنان بنتي، وأخت فايز وفايزة ومؤمنة. الله يرضى عليهم ويوفقهم».

سالت دموعُ فائز وكأنها تَوَدُّ تقبيلَ الخطِّ الحنون الذي كتبته اليدُ الطاهرة .. وسالت دموعٌ أخرى؛ امتزجَ فيها الفهمُ والندمُ على أيام عدم الفهم .. مع الحمد والشكر والرضى ... فَهِمَ فائز؛ لماذا .. عرف جوابَها الأعظم، فكاد قلبهُ يذوب حُبّاً وشكراً للحكيم العليم ... «اللّهُمَّ شفيتني فَلَكَ الحمد .. رَبِّ ارزقنيها يا كريم» ... وتعالت أصواتُ الجيران وهم يحاولون كسرَ الباب ...

ـ يا أستاذ فايز .. يا دكتور .. لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله.

قال فائز كما يقولون .. حاول إغماضَ عينيه .. لكنه بدأ يرى حوله زُوَّاراً كِراماً لا يحتاجون لفتح الأبواب .. كانوا يُبَشِّرونَهُ بِمَقْعَدِ صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتَدِر .. تماماً كما بَشَّروا قبله أناساً كُثُراً مِن أهل الشام؛ فَهِمَ منهم مَن فَهِم .. وجَهِلَ مَن جَهِل.

الذوّاق

كان رجلاً أَكولاً؛ بكل ما يمكن أن يحمله هذا الوصفُ من مَعانٍ، بعضها يخطر على البال، ومعظمها لا يمكن أن يخطر على بال.

بدأت قصته منذ زمنٍ بعيد، منذ أنْ تذوّق لأول مرة في حياته، طعاماً مختلفاً عمّا اعتاد على تناوله ... وصادف أنْ دُعِيَ في نفس اليوم إلى طعامٍ آخر ذي طعمٍ مختلف، فبدأت أحجارُ الدومينو المصطفّة بين عقله ومعدته بالتهاوي تباعاً.

الشراهة، النَّهَم، الإسراف في الأكل .. كل تلك الحقائق وغيرها، كانت تتخفّى وراء قناعٍ كاذبٍ جميل، قام بصنعه بنفسه، اسمه: أنا ذوّاق. ذلك القناع .. لكثرةِ ما وضعه على وجهه .. صدّقه الناس، وهذه لم تكن مشكلة ... لكنه هو نفسه صدّقه في النهاية، وهذه كانت المشكلة.

صار صاحبُنا ذوّاقاً محترفاً ذا سمعةٍ ورأي، لكنه لم يكن يتقاضى أجراً لِقاءَ رأيه الاستشاري ... الطعام في حد ذاته كان مكافأة.

لطالما أَنَّتْ معدته تحت وطأة الوزن الزائد الذي كان يحمّله يومياً على كاهلها ... عبّرت له مراراً عن تعبها، تارةً بحرقةٍ متصاعدة نحو البلعوم تصل أحياناً إلى الفم .. وتارةً ببعض المغص، بل بالقيء في بعض الحالات .. لا يهم ... كان هنالك أناسٌ آخرون يقطنون في أماكن بعيدة، قد اخترعوا له ولأمثاله أدويةً وعقاقير ملطِّفة ومهدِّئة.

والمضحك في الموضوع أنه لم يكن يعلم ـ شأنه في ذلك شأن كثيرين ـ أن أولئك المخترعين كانوا يتقاضون أجورهم من شركاتٍ سمينةٍ هي الأخرى .. ومختصة في المآكل بكل أنواعها؛ السريعة منها والبطيئة.

وأما ازدياد الوزن فقد تكفّلت بابتكار حلوله مجموعةٌ أخرى من المخترعين والفنانين أيضاً. المخترعون كانوا يبتكرون أدويةً لإنقاص الوزن .. أدويةً ممتازة جداً، لكنّ لها أثراً جانبياً واحداً ذُكِرَ في النشرة المرفقة باختصارٍ شديد .. فهي تخفّض الشهية بسرعة، فتعود الشهيةُ للاستيقاظ بسرعةٍ أيضاً. وهكذا يدخل الشخص الذي يتعاطى الدواء في دوامةٍ لا تنقطع؛ يسمن لشهرين أو ثلاث، ثم يتعاطى الدواء لأسبوعين فينقص وزنه ... إلى أن تستيقظ الشهية، وهكذا ... طبعاً، الجميع كان سعيداً؛ مصنّعو المآكل السريعة، والبطيئة، وشركات الأدوية، وصاحبنا الذوّاق وزملاؤه.

وأما الفنانون .. نعم، الفنانون .. فكانوا يرسمون على مدار الساعة، موديلاتٍ جديدةً من الألبسة الخاصة بأمثال صديقنا الأكول من أصحاب الوزن

الزائد. لا داعي للقول طبعاً مَن الذي كان يدفع لأولئك الرسّامين رواتبهم ... القصة ببساطة أن الخيوط التركيبية التي تُصنع منها الألبسة الجاهزة، لا تبلى بسرعة .. أي أن دورة المبيعات ستصير بطيئةً .. فكان الحل: الموضة.

الذوّاقون والذوّاقات، والنحيفون والنحيفات، الأحياء منهم والأموات .. لا يصحُّ – في عُرف المجتمع – أن يظهروا أمام الناس ببنطالٍ عريضٍ من الأسفل كما في سبعينات القرن الماضي ... وهكذا، بدأ الأمرُ بموضةٍ جديدة كل سنة .. ثم ظهرت موضات لكل فصلٍ من فصول السنة.

ودرءاً للإحباط، وخوفاً من أنْ يُسقَطَ في يد صاحبنا وأصدقائه الذوّاقين؛ فيتركوا أدوية التنحيف .. جاء الحل بسيطاً أيضاً ... فجأةً صار كُلُّ شيءٍ يظهر على الشاشات نحيفاً .. الممثلون، الممثلات، عارضو

الأزياء والعارضات، ممثلو الأفلام الـ ... والممثلات، حتى الإعلانات التجارية صار ممثلوها كمن يعاني من سوء التغذية. بل إن مؤلفي سيناريوهات الأفلام والمسلسلات لم يوفروا جهداً في الانتقاد المستمر للسمنة .. دَعْ عنكَ طبعاً السيل الهادر من برامج التوعية الطبية المحذِّرة من مخاطر السمنة.

ظاهر الأمر أن هذا تناقضٌ مع إعلانات الأكل والمطاعم ... خطأ .. فمرةً أخرى كان الكل سعيداً ... فالدوّامةُ الاصطناعية من التسمين ثم التنحيف، جعلت الكلَّ راضياً مبسوطاً؛ بما في ذلك ثُلَّةٌ من الأطباء الجراحين المبتسمين دائماً ... هذا يقصُّ شقفةً من المعدة .. وذاك يربطها كما يُربط كيس النايلون ... البعض كان يلجأ إلى حلٍّ أسهل؛ الخَرْز .. تماماً كما تُخرز ورقتان معاً ... وعليه فقد كان أصحاب المشافي أيضاً من السعداء.

وفي أحد المشافي .. ذاتَ يومٍ صيفيٍّ مشرق ... استلقى صاحبُنا الذوّاق على سريره؛ ينتظر دوره لإجراء عملية خرز لمعدته. كان وزنه قد زاد إلى درجةٍ لا يمكن السكوت عنها .. فقد كانت أنواعٌ أخرى من الـ (أكل) ـ إنْ صحَّ التعبير ـ تحتاج إلى لياقةٍ بدنية ولو بالحدود الدنيا ... لا تُسيئوا الفهم .. فكثيرٌ من الملذّات يُطلق عليها اسم الأكل، من باب التحبُّب.

أثناء انتظاره، دخلت ممرضة ... ثوبها الأبيض الهفهاف يحيط بخصرها الذي خضع طويلاً لأدوية التنحيف، في حين أَبَتْ إعلاناتُ المآكل السريعة إلا أن تترك عليه بَصْمَتَها ... استدارةٌ شهيّة .. حسب التعبير الذي قفز إلى ذهن صاحبنا وهو يرد عليها تحية الصباح ... قاست الضغط .. ابتسمت .. فاشتعلت في صاحبنا رغبةٌ جامحةٌ في الأكل ....

كان ملمسُ يديها ناعماً إلى درجةٍ لم يحتملها ... حتى أنها عندما سحبت الغطاء الخفيف الذي كان يغطي جسده؛ نحو الأعلى قليلاً كي تعدّل من وضعه، زادت رغبته في الأكل إلى درجة الجنون .. فقد مَسَحَ الغطاءُ – أثناء تحريكه – منطقةً حساسة من جسده .. البطن .. الذي تحته الـ .. معدة .. نقطة ضعفه الأولى .. تقريباً.

التفتت الوردةُ البيضاء نحو جهاز نبضات القلب .. فتطايرت مركباتٌ كيميائية من مزيل رائحة تعرُّقِها .. تطايرت إلى مستقبِلات الشمِّ في أنفه ... قامت المركّبات بعملها بسرعة؛ شَلَّتْ حاسَّةَ الشمِّ لديه إلا باتجاهٍ واحد .. فلم يَعُدْ يشمّ إلا رائحة العطر المُضاف إلى تركيبة المُزيل .. فازداد سُكراً.

انتبهت هي إلى أن نبضات قلبه تسارعت بشكلٍ ينذر بالخطر .. التفتت نحوه .. كان فمه مفتوحاً ..

وإحدى يديه ممتدةٌ نحوها .... قالت كلاماً ما؛ لم يفهم منه شيئاً .. وبثانيةٍ واحدة تحوَّلَ الصوتُ الصادر من جهاز مراقبة نبضات القلب إلى طنينٍ مستمر ... سقطت اليد التي كانت تحاول الامتداد ... لكن الفم .. بقي مفتوحاً.

كما هي حالُ معظم فاحشي الثراء، كانت لديه تلك الغرفة .. غرفةٌ حصينةٌ للغاية، لا يمكن اختراقها ولا سرقتها إلا باستخدام سلاحٍ ما من أسلحة الدمار الشامل. الجدرانُ فولاذية، النوافذ لا وجود لها .. وأما الباب، فهو لوحده قضيةٌ علمية تَصْلُحُ لكي تكون موضوعَ رسالةِ دكتوراه في تحصين أبواب خزنات المصارف ... معظم أولئك الناس، لديهم ما يحرصون عليه إلى هذه الدرجة من الرُّهاب المَرَضي.

وعلى ذكر الرُّهاب، فقد كان لدى صاحبنا ـ بطل هذه القصة ـ من الفوبيا وأخواتها، ما يكفي البشريةَ لإعادة إنتاج عدة فرويدات جدد.

كانت ذاكرته تضجُّ بالمئات، بل ربما بالآلاف من قصص جرائمه التي ارتكبها دون أن تتلطخ يداه بنقطة دمٍ واحدة ...كرامةُ أناسٍ داسَ عليها كي يصعد

السلّم، سمعة آخرين حَقَنَها بإيدز الشائعاتِ المكتوبةُ سيناريوهاتها بأقلام كتّابٍ محترفين بالقطعة.

حتى أفراد عائلته لم ينجُ أحدٌ منهم تقريباً؛ بدءاً من أبيه الذي فارق الحياةَ وهو يدعو عليه ـ في سِرِّه طبعاً ـ لأن العجوز لم يكن يجرؤ على الإفصاح عن شعوره الحقيقي .. مروراً بأمه المسكينة التي كانت مضطرةً طيلة سنوات للتظاهر بأنها راضيةٌ عنه، في حين كان يذيقها الأمرَّين ... وصولاً إلى إخوته الذين أكل معظم حصصهم في الميراث، حتى إذا ما بلغوا حدَّ الفقر، طبَّلَ وزمَّرَ بين الناس متحدثاً عن إحسانه إليهم ببعض الفُتات كلَّ حين.

وليس من اللائق الحديثُ عمّا فعله بزوجته الأولى قبل أن يطلّقها ... مجرد حالة الرعب الدائم الذي تعيشه زوجته الثانية حالياً، والتي حرصَ على أن يروي لها قصةَ مَن سبقتها .. تكفي لأخذ فكرة.

وأما إنجازاته كرجل أعمال، فتلك حكايةٌ أخرى ... غسلَ الأموالَ لحساب العفاريت الزرق، وأقرضَ بالربا حتى شعر إبليسُ نفسه بالغيرة والغباء .. وباع واشترى كلَّ ما يمكن أنْ يُباع ويُشترى، بدءاً من سمومٍ يتعاطاها البشر، وصولاً إلى البشر أنفسهم.

وكلُّ محتوياتِ غرفته المحصّنة تلك، بكل ما فيها من وثائق ونفائس ومصائب أيضاً، لم تكن توازي ـ في قيمتها وخطورتها ـ تفصيلاتِ قصةٍ واحدة من تلك القصص المخزنة في ذاكرته.

المشكلة .. لبُّ المشكلة، أنه لم يكن يستطيع الحديث عمّا في ذاكرته مع أي إنسان. الثقةُ بالنسبة إليه، كانت مجرد مفردة مكتوبةٍ في قواميس اللغة ... ويكاد يُقسِم أنه يجهل حتى سببَ وجودها.

واليوم، وقد بلغ السبعين إلى قليلاً، غَلَبَتْهُ الرغبةُ في الحديث .. بل قُلْ إنها الحاجةُ إلى الحديث ...

الحديث عن تاريخه الأسود .. الحديث ولو مع الشياطين.

فَكَّرَ طويلاً .. ثم هَمَسَ له شيطانه الخاص بأنَّ ابنَ واحدةٍ من موظفاته .. موظفاته اللواتي لم يَعُدْ يذكر حتى ملامح وجوههن، ودَعْ عنكَ ذِكْرَ باقي أجزاء الجسد .. المهم أن ابن إحداهن قد صار مبرمجَ حاسوب من الطراز الرفيع، ويعمل في إحدى شركاته. وبالمناسبة، فقد كانت تقاطيعُ وجهِ ذلك الشاب تشبهه نوعاً ما ... لا علينا، فالخطأ وارد.

استدعاه .. خاف الشابُّ في البداية، لكنه أنصت بعناية .. وعلى الرغم من ذكائه، لم يفهم تماماً الغايةَ من الطلب الغريب والمعقّد الذي أَمَرَهُ به صاحبُ الأموالِ التي لا تأكلها النيرانُ.

إعادة برمجة طريقة فَتْحِ باب الغرفة الحصينة، هذه مفهومة .. لكن ما قصة الملف الصوتي ! ... كان

صاحبُنا قد حزم أمره، واتخذ قراره بالكلام عن كل ما يجول في خاطره .. خاطره الموبوء المليء بالآثام .. ولكن لِمَن؟! لنفسه طبعاً؛ فهو لا يثق بأي مخلوق.

وبما أن للحيطان آذاناً ـ هكذا يُقال ـ فقد لجأ إلى حيطان الفولاذ .. إلى جدران الغرفة إياها. لكن حساباته كانت كالعادة، دقيقةً للغاية.

استمعَ الشابُّ العبقري لكلام وليِّ نعمته ونعمة أمه، ولا مؤاخذة .. استمعَ بدقة ... «أريدُ لهذا الباب، إذا أُغلِق، أن لا يُفتح مهما تكن الظروف، إلا بعد الوقت المحدد».

حاول عبقريُّ الحاسوب صياغةَ سؤاله بطريقة مهذبة، حتى لا يزعج معلّمه، أراد أن يعرف كم طول المدة الزمنية، فجاءه الجواب أكثر غرابةً وتعقيداً ... صمت الرجلُ لبرهة، ذَكَرَ بصوتٍ مسموع رقماً؛ ضربه باثنين، وبعد ذلك أعطاه النتيجة بالساعات.

الفكرة باختصار كانت تتلخص في كلمتين .. «مصل الحقيقة» .. تلك المادة الكيميائية المعروفة على نطاقٍ ضيق جداً، والتي لا تُستعمل إلا في التحقيقات مع الجواسيس المدرَّبين على الكذب لفتراتٍ طويلة، مهما تكن أساليب التعذيب ... طبعاً لا داعي للقول كيف استطاع صاحبُ الفكرة الوصولَ إلى إبرةٍ من هذا النوع، فالمالُ غالباً يمكن أن يشتري أي شيء.

لماذا مصلُ الحقيقة .. حسناً، الجوابُ على هذه الـ (لماذا) كامنٌ في مساحةٍ قَصِيَّةٍ نتنة تقع في حاويةٍ ما مِن أعماق صاحب المليارات الحرام، صاحب الغرفة المحصّنة ... فهو ـ لشدة ما حَرِصَ على الكتمان لعقودٍ من الزمن ـ فَقَدَ القدرةَ على البوح والكلام بصوتٍ عالٍ، حتى لو أراد ذلك. ولم يكن مِن حلٍّ إلا تلك الإبرة .. فمصلُ الحقيقة كفيلٌ بِجَعْلِ أي إنسان يفقد القدرة على إخفاء أي سر.

وبما أن لمفعول الإبرة مدةً زمنية محددة؛ تفقد بعدها تأثيرها، فقد كان الرجل حريصاً على أن يبقى الباب مغلقاً وهو يتفوّه بما لا يصحُّ أن يسمعه أحد ... لكنه هو نفسه أرد أن يستمع .. أن يسمع صوته بعد أن يصحو من تأثير الإبرة؛ كيف كان يهذي كيفما اتفق؛ قائلاً كلَّ شيء ... كلَّ شيء.

وهكذا، وبما أن مفعول الإبرة ينتهي بعد ساعتين، والاستماع إلى الملف الصوتي الذي سيسجله النظام الحاسوبي المرفق بتجهيزات الغرفة، يستغرق ساعتين هو الآخر ... فإن باب الغرفة ينبغي أن لا يُفتح ـ مهما تكن الأسباب ـ إلا بعد أربع ساعات.

طبعاً لم يذكر القارون المعاصر لموظفه الشاب أيَّ شيء عن مصل الحقيقة .. مصل الحقيقة الذي مات الشخصُ الذي تكفّل بشرائه؛ في حادثِ سيرٍ مؤسف قُيِّدَ ضد مجهول ... بل إن القُوَيرين لم يذكر للشابِّ

أيَّ تفصيلٍ يتعلق بالتسجيل أو الاستماع .. كل ما هنالك أنه استفسر خلال الحديث عن جاهزية النظام الصوتي في الغرفة، ثم غيّر الحديث بسرعة .. ففهم الشابُّ شيئاً، أو هكذا خُيِّلَ إليه. رَكَّزَ الرجلُ على قضية الساعات الأربع .. وبعد أيام، كان كل شيء جاهزاً.

قلّما يهتم التاريخ بتفصيلاتٍ كهذه .. فالقارون لم يعرف لماذا تركَ عبقريَّ الحاسوب يعيش بعد انتهاء مهمته ... شيءٌ ما في صوت ذلك الشاب وفي ملامح وجهه، كان قد أثار فيما تبقّى من قلب القارون، شعوراً ما نحوه .. لم يفهمه .. لم يبذل جهداً لفهمه .. لكنه، من حيث النتيجة، تركه يعيش.

لكن التاريخ أيضاً، وإن لم يكن لِيُلقِ بالاً للشؤون الشخصية، كان حقيقاً به أن يتساءل عن شيءٍ أكثر أهميةً .. لماذا؟ .... شيءٌ، أو أشياء، أو

مصائب في داخلك؛ تعرفها بتفصيلاتها المملّة .. فَلِمَ تريد الاستماعَ لنفسك وأنت تهذي حاكياً عنها كلَّ شيء؟! إنه الكِبْر .. الاستعلاء ... وبشكلٍ أدقّ، إنه المرحلة الأخيرة من الإكرام الإلهي الاستدراجي الذي لا يعرف الظالمُ الذي يتلقّاه أنه استدراجيٌّ، إلا بعد أن تأتي المرحلة التي تليه .. مرحلة الأخذ بغتةً.

ومن عجيب صُنْع المولى تبارك وتعالى؛ في أولئك .. أنهم يخططون ويعدّون العدة بأيديهم لنهايتهم.

وفي اليوم الموعود .. وبعد أن أُغلِقَ الباب ... حَقَنَ القارونُ نفسه بمصل الحقيقة. وبعد دقائق بدأ الكلام، وبدأ التسجيل.

المضحك في مصل الحقيقة، أن الشخص الذي يُحقن به، ينسى ـ بعد أن يستفيق ـ ما الذي قاله ... بل ينسى أنه حُقِنَ به أساساً. وأما المُبكي فهو ما حدثَ في المرحلة الثانية ... مرحلة الاستماع.

جلس القارون يستمع .. وضع رجلاً على رجل وهو يدخّن سيكاره الكوبي الباهظ الثمن ... بدأت تَنِدُّ عنه ابتساماتٌ بين الحين والآخر؛ وهو يصغي لهذيانه .. كلمةٌ من هنا .. ذكرى من هناك ... وحين اشتدَّ أثر المادة الكيميائية وتمكّنت من مَواطن الإخفاء، وبدأ سياقُ أحداثِ كلِّ جريمةٍ يتّصل ببعضه البعض كأنه رواية .. لم يَعُد القارون يبتسم، بل اكتسى وجهه بالوجوم.

ولم تَمْضِ نصف ساعة من ساعتَي الاستماع، إلا وقد ارتفع ضغطُ دمِ المُصغي إلى هذيانه ... كان الملف الصوتي وثائقياً تسجيلياً .. قذراً .. ومرعباً في نفس الوقت.

ولسببٍ ما، كان الشابُّ المبرمج قد أدخل ضمن التعديلات التي أجراها، أنْ لا يتوقف أيُّ شيءٍ من أنظمة الغرفة عن العمل إلا بعد انتهاء مدة الساعات

الأربعة؛ ربما من باب زيادة الحيطة ... فكان ذلك نوعاً غريباً من التعذيب الذاتي فَرَضَهُ القارونُ على نفسه من حيث لا يدري.

عند انتهاء الساعة الثالثة، بدأ الظالمُ الذي سَجَنَ نفسه كي يقرأ بعضاً من فصول كتابه ... بدأ يبحث عن طريقة .. أي طريقة لإيقاف ذلك الصوت .. صوته هو نفسه .. صوته الذي يذكّره دون توقُّف، كم هو فاسد .. كم هو حقير .. وكم هو مجرم.

بحثَ كثيراً .. بل إنه وصل إلى مرحلةِ أنه أشهر مسدسه وأطلق النار على جنبات الغرفة؛ على أمل أن يصيب مكان الـ speaker ، فما أفلح ... ارتدت بعض الطلقات وكادت أن تصيبه .. لكن الصوت لم يسكت.

صرخَ .. نادى .. شتمَ .. أرغى وأزبد .... والصوتُ يتابع قصَّ الحكاية.

وقُبَيْلَ انتهاء المدة ببضع دقائق ... اخترقَ جنديٌّ صغير من جنود الله، جدرانَ الغرفةِ التي قِيلَ أنها لا تُخترَق ... جنديٌّ يَقِلُّ حجمه عن ربع ميليمتر مكعّب؛ جاء لإنجاز مهمةٍ محددة ... جلطة دموية ... سارت الجلطةُ نحو مكانها .. سَدَّت المجرى ... بدأ الفُرَيعينُ يشعر بألمٍ في الصدر، وبآخر في اليد اليسرى ... مَدَّ يده نحو جيبه كي يُخرِجَ حبةً مكوّنةً من نفس مادة الـ (نيتروغليسرين) الذي يُصنَع منه الديناميت .. الديناميت الذي طالما تاجرَ به .. أرادَ أن يضعها تحت لسانه كي يمتصها فتسري من لسانه إلى دمه؛ عسى أن تُفَجِّرَ ذلك الجنديَّ الصغير ... شأنه في ذلك شأن كل مريضٍ في القلب .. لكن الاحتياطات البشرية لم تكن لِتستطيع إيقافَ أمرِ الله.

خلال مراسم الجنازة، شعرت أمُّ الشابِّ العبقري بالانزعاج لأن ابنها لم يحضر لتقديم احتراماته

لذكرى الفقيد، مع أن كل الموظفين والموظفات قد حضروا، في حين كان الشاب مشغولاً بأمورٍ أكثر أهميةً من الشكليات.

كان عبقرُ الحاسوبِ جالساً مع صديقٍ له؛ هو الآخر ابنٌ لإحدى موظفات الفقيد الراحل ـ وما أكثرهنّ ـ ويعمل محامياً ... كانا يتناقشان في موضوعَين .. الطريقة المُثلى لاستثمار ملفٍّ صوتي حَصَلَ عليه الأولُ بأسلوبه الخاص ... والإجراءات القانونية الخاصة بتحليل الـ DNA لإثبات النسب. الشابُّ الثاني، المحامي ... كانت ملامحه أيضاً .. قريبةً من ملامح صديقه.

لم يسأله أحدٌ من أهل القرية عن أصله وفصله. استقبله الجميع بالترحيب، وتفهّموا ظروفه. لم يدقق المختار ولا الوجهاء ولا حتى رئيس المخفر .. وكلهم أهل كرمٍ ومروءة؛ فالوافدُ المسكين فقيرٌ ذو عيال. أي أنَّ أحداً منهم لم يتذكّر أن بعض الظن إثم .. بعضه فقط، لا كُلَّه.

بالمقابل، كان هو نموذجاً خاصاً من ذوي البراعة في التمثيل والكذب، وصاحبَ فرقةٍ مسرحيةٍ جوّالة، إنْ صحَّ التعبير .. مؤلفةٍ منه كمدير، ومن زوجته وبناته كأعضاء. ولا عليكَ إنْ تساءلتَ عن هوية المُنتِج والمموِّل .. فتلك من الأسرار الدفينة.

وفي قريةٍ مثل هذه، لم تكن فكرة المسرح واردةً؛ لا في قلوب أهل القرية البسطاء، ولا في ذهنه

هو ... عملياً، كان يؤدي الأدوار مع فرقته بين الأهالي .. يعيش دورَ المسكين كأحسن ما يكون ... والحيلةُ تنطلي على مُعايشي مسرح الواقع. باختصار، كان المتمسكن فناناً في استغلال الشعرة البالغة الدقة والفاصلة بين الطّيبة والغباء، وقادراً بالتالي على اختراق القرية من رأس هرمها، وصولاً إلى شحّاذيها ومجاذيبها.

وخلال يومين أو ثلاث، كان المقرُّ العام للفرقة قد تمَّ استئجاره بثمنٍ لا يكاد يُذكر، مع تأجيل دفع أجرة الشهر الأول إلى آخره .. ومع إيماءةٍ من أحد الوجهاء إلى صاحب البيت الذي فهم مؤداها ... «الأجرة عليَّ أنا».

لم تتعب الممثلات في أول سُكناهم بشؤون الطبخ. جاءت الـ (سِكَب) من بيوت الجيران، إلى درجة أنهن احترنَ أين يضعن الطعام الزائد ...

بطانيات .. شموع للإضاءة .. أوانٍ للطبخ ... ساهم كلُّ بيتٍ في القرية بما استطاع، في الوقت الذي كان فيه الـ ... ماذا نسمّيه؟! .. حسناً، لعل الاسم الأنسب له هو: فيروس .. وزوجته: فيروسة .. واسم العائلة الأكثر مناسبةً .. آل الفيارسة.

كانت مبادرات الكرم تتوالى، في الوقت الذي بدأ فيه فيروس بدراسة وضع القرية وتوزيع الأدوار على أعضاء فرقته مبدئياً... واحدةٌ من البنات لاستقبال مَن يطرق البابَ بحياء وقد أدار ظهره بسرعة حرصاً على حرمة البيت، والـ (بنوتة) الحيِّية تأخذ ما أتى به الشاب وهي تشكره بصوتٍ لطيفٍ مبحوح .. يجب أن يكون مبحوحاً؛ هكذا أفهمتها أمُّها وهي تسقيها محلولاً مناسباً لهذه الغاية ... بنتٌ أخرى تستقبل الزائرات الشابات، والأم طبعاً لاستقبال السيدات .. لم تنسَ فيروسة خانم أن تفرز ابنتها الثالثة للمراقبة

.. مراقبة التعبيرات المرتسمة على الوجوه، ورصد ردات الفعل تجاه بحة الصوت وغيرها من باقي الأساليب.

وأما فيروس نفسه، فقد ذهب إلى المختار في مهمةٍ تمثيلية على درجة كبيرةٍ من الأهمية والإيهام .. ذهب كي يسأله عن عمل .. أي عمل .. حتى لو كان تنظيف الشوارع وجَمْع القمامة. تعايشَ المختارُ مع المشهد لدرجةِ أنه استنكر الطلبَ السابق لأوانه .. «عمل! لا تتعجّل يا رجل، أنت ضيفنا».

ثم مارس المختارُ التصفيقَ في آخر المشهد بطريقةٍ عملية .. صفَّق بيدٍ واحدة امتدّت إلى جيبه، ثم ناولتْ فيروس ما فيه النصيب. كانت تلك أولَ دفعةٍ نقدية تأتي من خارج إطار مصادر التمويل الرئيسية. لا بأس، فزيادة الخير خير.

في كلَّ مساء، حَرِصَ فيروس أفندي على تذكير أعضاء فرقته بمهتهم الأولى .. الاختلاط، الاندماج،

التحوُّل إلى مجموعةٍ من أهل القرية خلال أسرع وقتٍ ممكن .. دون نسيان دراسة طبائع الجميع، ومعرفة أحوالهم .. طرائق تفكيرهم .. ميولهم .. رغباتهم .. والأهم طبعاً، نقاط ضعفهم. المال والنساء، هذه معروفة .. التفصيلات هي الأكثر أهميةً.

فيروسة خانم من طرفها، داومت على إعطاء بناتها الدروسَ اللازمة .. الحياءُ المُتَصنَّع؛ بمقدارٍ مدروس دائماً .. والنظرة الواعدة بالمزيد، لا تُعطى إلا بعد تحديد الهدف كزوجٍ محتمَل .. اللباس محتشم، لكن أجزاء صغيرةً من الجسد يجب أن تظهر لبرهةٍ صغيرة؛ وكأنها ظهرت عَرَضاً ودون قصد، ثم يتمُّ تدارك الأمر بسرعةٍ وحياءٍ بالغَين .. والروائح العطرية بمقادير غير مبالغٍ فيها، لكنها موجودة دائماً.

وقُلْ عن تبادل المعلومات ما شئتَ أن تقول ... كان فيروس يعود من جلسات شرب القهوة والدخان

عند المختار أو غيره من الوجهاء، وفي جعبته كل يوم .. معلوماتٌ عن شابٍّ جاهزٍ للزواج .. أو شركةٍ بين شخصين لم تنته على خير .. أو شكوى عن حصص ماء السقاية أو الأسمدة الزراعية. لكن المعلومات الأكثر تفصيلاً كانت تأتي من فيروسة خانم.

لم تترك فيروسة أيَّ دعوةٍ لشرب القهوة عند جارةٍ، أو فرصةٍ للمساعدة في إعداد الطبخ لوليمةٍ، إلا ولَبَّتْها عن طِيب خاطر ... والنساءُ طبعاً يتحدثن كثيراً .. بل إنهن للأسف يخضن في الحديث عن أي شيء .. أي شيء دون استثناء. وفيروسة بالطبع، كانت مستمعةً ممتازة، وتتمتع بذاكرة قوية .. فضلاً عن امتلاكها لمخزونٍ لغويٍّ ممتاز من الجُمَل المحفِّزة على متابعة الكلام؛ تستعمله عندما تشعر أن مُحَدِّثَتَها أمسكت عن المتابعة بسبب وصولها إلى منطقةٍ حرجة من الحديث.

وخلال بضعة أشهر، صارت لدى فيروس أفندي قاعدةُ معلوماتٍ طويلةٌ عريضة، تتضمن عجائب وغرائب .. بدءاً مما يطلبه الرجال ويقولونه وهم في أكثر المواقف خصوصيةً وعائلية.. وصولاً إلى الآراء والمواقف والقناعات حول الأمور العامة ... باختصار، صارت عائلةُ الفَيَارسةِ قادرةً على القول بكل فخر، أنها باتت تفهم أهلَ هذه القرية أكثر مما يفهمون هم أنفسَهم.

وللحقيقة، فإن فجوات جهاز القرية المناعيِّ كانت كثيرة .. كثيرةً ومتروكةً دون علاج لسنواتٍ وسنوات. حتى أن الأهالي كانوا يتندّرون بذكر آفاتهم وإطلاق النكات حولها.

تلك الفجوات قام فيروس بجدولتها حسب الترتيب التصاعدي في الأهمية؛ من الأقل أهميةً، دون إهمال، إلى الأكثر هلهلةً وضعفاً ... على رأس

القائمة، كان الاسمُ محدداً .. واحدٌ من كبار أصحاب الأراضي، وبالتالي واحدٌ من وجهاء القرية .. نقطة الضعف: علاقته بزوجته ... المصدر: فيروسة خانم التي نقلت حديثاً سمعنه من الزوجة نفسها.

وتفتَّقت عبقريةُ فيروس الشيطانية عن حَلٍّ اختراقـيٍّ تسلسليّ .. بدأ بالقصف التمهيدي الذي اتّخذ شكلاً دعائياً. ففي كل جلسةٍ اختلى فيها بالوجيه المذكور، كان المحتال يتفنّن في مَدْحِ الاستقرار الزوجي الرائع الذي يعيشه مع فيروسة .. والوجيه الأحمق يندب حظه.

ومنذ أنْ قَلَبَ أحدهم جَرَّةً على فمها، وراق له أنْ يستكمل كلامه بالسجع، والناس قد وقرَ في أذهانهم أن البنت تشبه أمها. ومع أن الوجيه المغفّل كان يعرف مثل كل الناس أن قضية الجرة وفمها تعميمٌ لا يستقيم دائماً، فقد طابَ له أن يعيش هذه الكذبة .. أن يتلقّى

تسويقَ فيروس أفندي لابنته على أنها شبيهة أمها، تلقِّياً سلبياً مائةً بالمائة.

كان الممثل المحترف القديم في المهنة يتحدث، والأحمق يستمتع بالمساحات البعيدة التي يتجوّل فيها خياله أثناء تشرُّبه للجرعات الدعائية المركّزة التي يحقنها به فيروس في كل سهرة ... وهكذا إلى أن نضجَ الهدفُ السهل على نارٍ هادئة، فانتهى القصف التمهيدي، وصار الوقت مناسباً للخطوة التالية.

شَكَّتْ زوجةُ الوجيه الأحمق، وخافت .. حاولت ثنيَ زوجها عن اتخاذ القرار، لكن الأمر كان قد حُسِم ... ستأتي بنت فيروس للعمل في بيت الوجيه، لا كخادمة، بل للمساعدة في شؤون البيت .. والحُجَّةُ جاهزة؛ مساعدة الوافد المسكين ذي العيال.

وكُلُّ ما دار بين أهالي القرية من أحاديث وتعليقات؛ بدءاً من مستنكري الاستغلال وصولاً إلى

رافضي الفكرة من الأساس .. كل ذلك لم يكن شيئاً يُذكر أمام ردة الفعل تجاه ما رآه الناسُ بأم أعينهم لأول مرة في حياتهم ... زيارةٌ عائلية! ولأي شيء .. لإيصال أبٍ وأمٍّ ابنتَهم للعمل في بيت غريب. كانت تلك لحظةً مفصلية في تاريخ القرية.

هنالك مَثَلٌ فرنسي يقول: «الزمن يداوي كل شيء» .. حسناً، لقد اعتاد أهلُ القرية على المستجدّات. لكن الذي لم يكونوا يعرفونه، هو أن بنت فيروس أفندي، والعهدة على صدق فيروسة خانم، كانت مدربةً تدريباً على أعلى مستوى، فضلاً عن متابعة أمها لها في كل شاردةٍ وواردة.

وعندما أعلن الوجيه المغفّل خبرَ زواجه من بنت آل الفيارسة، ولَمَّحَ إلى أنه اتّخذ هذه الخطوة إخراساً لبعض ألسنة السوء .. تهللت أسارير الرجال. وأما وجوه النساء، فقد اكتست بمزيجٍ من التوجُّس

والارتياب. ولكن مهلاً ... فالنصر في معركة يعرف الفيارسةُ كيف يستثمرونه دعائياً.

سارعت فيروسة خانم إلى لَعِبِ دور المحللة الاستراتيجية .. العنوان العام: يا مَن تركنين إلى رجل، أَمَا سمعتِ بقصة الماء في الغربال؟! .. لا عهدَ لهم .. لا أمانَ لهم .. يا لِشهواتهم التي لا تُشبَع. لكن المستمعات هذه المرة لم يَكُنَّ متلقِّيات سلبيّات تماماً، فالمحللة الاستراتيجية والخبيرة في شؤون الجماعات الرجالية المستكلبة هي أم العروس ...

وكي يعود لفيروسة خانم شيءٌ من مصداقيتها التي تزعزعت، كان لا بد من مشهد تمثيلي إضافي ... استيقظت القرية في إحدى الليالي على صوت فيروس وفيروسة؛ يتشاجران .. وفي اليوم التالي أَبَتْ فيروسة إلا أن تغادر المنزل، وباتت عند زوجة وجيهٍ آخر مغفّلٍ أيضاً .. صادفَ أنه على خلافٍ مع العريس

الجديد - المغفّل الأول - حول الحدود الفاصلة بين أرضيهما ... والمصادفات، كما لا يخفى عليكم، تحدُث. وخلال يومين تمّت المصالحة .. عادت فيروسة .. وعادت إليها مصداقيتها .. وتمَّ التنفيس عن المشاعر .. ونسي الناسُ القصةَ الرئيسية.

وخلال سنة واحدة فقط، تغيّر وجه القرية .. لدرجةِ أنه لو تسنّى لشخصٍ يعرفها جيداً أن يزورها، لأنكرها وظنَّ أنه قد أخطأ في العنوان.

افتتح فيروس مشروعه التجاري الصغير الأول: «مقهى فيروس كافيه» .. بدعمٍ مالي ولوجيستي من صهره الوجيه الأحمق ... صار الشباب يقرقرون مياه النراجيل كل مساء، وهم يتحدثون في التوافه .. سافر بعضهم إلى المدينة بحثاً عن حياةٍ أجمل، فَقَلَّت اليدُ العاملةُ في الأراضي الخيّرة .. ازداد تذمُّر النساء من أزواجهن بعد أن نجحت جهود فيروسة وبناتها في

إلباسهم ثوبَ الظلم والشهوانية؛ عبر دعايةٍ مركّزة بَثَّتها في عقول جليساتها صباحَ مساء.

فيروس من جهته، بثَّ الدعايةَ المضادة .. حقّ الرجل الشرعي .. الأنوثة التي تراجعت .. الآفاق البصرية التي فتحتها الشاشة الكبيرة التي أضافها فيروس بيك إلى مقهاه من أجل مشاهدة مباريات كرة القدم، مع جهاز استقبال متعدد الإبر ... وهكذا إلى أن حصلت حالات طلاق .. وقصص حب .. ثم شذوذاتٌ لم يكن أحدٌ في القرية قد سمع بوجودها أساساً.

وبالمناسبة، فإن بنتَي فيروس الأُخريَين لم تتزوجا ... واحدةٌ منهما اختصّت في قص الشَّعر بأنواعه، وفيما شابه ذلك من أمور النساء .. والثانية تابعت دراستها في مدرسة البنات في القرية، على الرغم من كونها أكبر عمراً من زميلاتها.

وعلى الرغم من أن إدارة المدرسة تساهلت في موضوع العمر والوثائق، إلا أنها نَسيت، أو ربما تناست، ما يمكن أن تكون عليه طبيعةُ الأحاديث التي تدور بين بناتٍ طيبات صغيرات السن، وبين فيروسةٍ أكبر منهن سناً و .. خبرة! .. كانت ابنة فيروس تلك، مطلّقة.

وبما أن الشيء بالشيء يُذكر، فإن حواراتٍ، أو فَلْنَقُل: دراسةَ حالات، كانت تدور أيضاً في صالون التجميل الذي فتحته أختُ الفيروسة المطلّقة .. صالون التجميل الذي كَثُرَ عددُ زبوناته من نساء القرية اللواتي تَلَقَّين الدعوة من الفيروسة الكبيرة، ومن بَنُّوتاتِ القرية أيضاً؛ اللواتي دُعِينَ من قِبَل زميلتهن المطلّقة.

ومرَّت السنة الثانية وفيروس يزداد تمكُّناً .. إلى أن بدأ في مطلع السنة الثالثة، بتوسيع أعماله ... كان

عمله في إدارة المقهى يتيح له وقتاً إضافياً من جهة، ومكاناً يسمع فيه ما يدور من أحاديث الزبائن من جهةٍ أخرى ... فزبائنُ المقهى ما عادوا يقتصرون على جيل الشباب فقط، بل انضمَّ إليهم الرجال وبعض المتقدمين في السن أيضاً.

والمهنة الأولى التي تقوم، من أَلِفِها إلى يائها، على الكلام، إنما هي مهنة الوسيط العقاري .. كيف لا، واليدُ العاملة تهاجر، والباقي منها غارقٌ في قرقرة مياه النراجيل ومشاهدة الشاشة والإنترنت المجاني أيضاً، والذي أضافه فيروس بيك إلى خدمات مقهاه. وهكذا فالأراضي فارغة .. وبعض الرؤوس كذلك.

فيروس ليس غبياً .. لا أحدَ مِن أمثاله غبيٌّ ... وبالتالي فهو لم يبدأ عمله العقاري فوراً بذكر قضية حساسة مثل بيع الأرض، بل بدأ بالاستثمار، بالضمان. ثم انتقل تدريجياً إلى التأجير. وهكذا إلى أنْ

وصلَ الأمرُ بشابٍّ وَرِثَ عن أبيه حصةً من أرض، وأراد أن يبيعها .. فكادت أن تقع الواقعة. جاء الشابُّ إلى المقهى ذات مساء .. لم يجلس إلى طاولة، بل توجّه نحو المعلّم، وقال بعد التحية:

- عمّي فيروس.. أريد أن أبيع أرضي.

وبما أن الخير لا يمكن - مهما قلَّ - أن يصل إلى نقطة الصفر، فقد تصدّى مَن تبقّى من عقلاء القرية لذلك الشاب ووقفوا في وجهه .. وكان لا بد لفيروس من تراجعٍ تكتيكي.

استطاع الدلّالُ الجديد إقناعَ أخٍ من إخوة الشاب .. اختاره فيروس بعناية ... بشراء حصة أخيه. لكن الأخ لم يكن معه كامل ثمن الحصة، فأقرضه فيروسٌ المبلغ ... كيف أقرضه .. وما هي الضمانات .. لكَ أن تتخيل. يكفي أن نقول أنَّ كلاً من فيروس وصهره الوجيه الذي لم يَعُد مغفلاً كثيراً .. فكّرا

جدياً في العمل بالقروض الصغيرة والميسّرة ... تمَّ الأمرُ، وكانت العوائد مجزية.

بدأ كثيرون بالاقتراض، لحاجةٍ ولغير حاجة .. إلى أنْ وَصَلَ الأمر ببعضهم إلى قبول التعامل بالربا، ثم ببيع أراضيهم بثمنٍ بخس بعد تراكم مبالغ الربا ... ومن حيث النتيجة، صارت وجوهٌ جديدة من الغرباء - وكلهم من أمثال فيروس - تظهر في القرية بشكلٍ عاديّ؛ بغرض الشراء فقط، ودَعْ عنك ذكرَ البيع فتلك قصةٌ أخرى. كان أولئك الغرباء ميسورين جداً .. وجاهزين للدفع نقداً.

ثم أتى على القرية يومٌ مشهود ... في ذلك اليوم، جاء مِن أقصى القرية رجلٌ يسعى؛ قال: يا قوم لكم عندي أخبار.

ذُهِلَ شيخُ القرية مما سمعه من ذلك الزائر. لم يصدّق في بادئ الأمر، لكنه استمع إليه جيداً.

روى الزائرُ للشيخ قصةَ قريته التي جاء منها .. قريته التي كانت في يومٍ من الأيام وادعةً طيبة، قبل أن يأتي إليها وافدٌ مسكينٌ فقيرٌ ذو عِيال ... روى كيف استقبلوه واحتضنوه .. ثم كيف بدأ المتمسكن يَبُثُّ في جهازهم المناعي الضعيف، حمضَهُ النووي الريبي منقوص الأكسجين، والذي باشرَ فوراً بتغيير الشيفرة الثلاثية للأحماض الأصلية .. بأنْ جعلَها تعطي أوامر أخرى مشوَّهة ومشوِّهة؛ مفادُها أنْ أنتجي مِن أمثالي الآلافَ حتى تضيقَ الخليةُ المناعيةُ بكثرتهم، فتنفجر .. لِتتفشّى محتوياتُها المشوَّهة والمشوِّهة في أرجاء الجسد المهلهل ... ويتسنى حينئذٍ لكلِّ فيروسٍ جديد أن يخترق خليةً مناعيةً سليمةً أخرى ... وهكذا.

اضطرَّ الشيخُ للاستعانة بطبيب القرية كي يفهم ما الذي يقوله الزائر ... فأفاد الطبيبُ بأنْ هذه هي

آليةُ عملِ الفيروس في جسم الإنسان .. وأَوْضَحَ للشيخ أن الزائر يشبّه تشبيهاً بليغاً .. وأن الجهاز المناعي للإنسان يصل في نهاية هذا الاجتياح الهادئ إلى مرحلةٍ يمكن أن يموت فيها الإنسانُ المصاب بالفيروس، لمجرد نزلةِ بردٍ عادية. وأضاف الطبيب:

ـ خُذْ فيروس الإيدز مثلاً.. إنه لا ينتقل إلا عبر العلاقات الجنسية الشاذة والحرام. أي أن الإنسان هو مَن يفتح البابَ بيده لدخول الفيروس.

سأل الشيخُ قائلاً: «وهذا الضيفُ لم يأتِ كي يحدّثنا عن الطب .. أليس كذلك؟!».

أجاب الطبيبُ:

ـ بل إنه تحدّث عن طبٍّ أكثر أهميةً.. طبِّ العقول والقلوب.

وحتى يومنا هذا.. ما زال شيخُ القريةِ الذي نجحَ فيروس بيك في تنحيته عن عمله؛ بمساعدة صهره

الوجيه ... ما زال يذكر قصةَ ذلك الزائر .. الزائر الذي كان مرضُ الفيارسة قد تفشّى في قريته حتى أفسدها، فأخذَ على نفسه عهداً بالسياحة في الأرض؛ متنقلاً من قريةٍ إلى أخرى، محذراً الناسَ .. مُحاوِلاً إفهامهم أنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ .. بعضه فقط، لا كله .. وأنَّ المؤمنَ كَيِّسٌ فَطِن .. وأنَّ الله يلومُ على العجز.

الأجيالُ الجديدة صارت تعتبر شيخَ القريةِ المتقاعد مجنوناً، لأنهم لم يكونوا يفهمون ما الذي يقوله ... لكن الشيخ كان عاقلاً تماماً.

ومما لم تَمْحُهُ الأيامُ من ذاكرة الشيخ .. كيف انتهى أمرُ ذلك الرجل الطيّب الذي جاء يوماً من أقصى القرية يسعى ... طلقةٌ نارية لم تجرؤ على مقابلته وجهاً لوجه .. فاخترقت ظهره.

عائلة جدوَل الضرب

كان الأبُ بالطنبورِ ضارباً، والأم ـ بالتالي ـ ترقص له ولغيره؛ ضاربةً عرضَ الحائط بِعِرضه، فجاء الأولادُ مثلهما وأكثر .. الولدُ يضرب أقرانه في المدرسة، والبنتُ ضَربت مثلاً في عدد أصدقائها من الشباب .. حتى الخادمة كانت تُضرِب عن الطعام إذا أزعجها أحدٌ من العائلة.

ولمّا كبر الولدُ وعمل في مهنة أبيه الذي يُضارب بأسعار قوتِ المساكين وأرزاقهم، تضاربت مصالحهما .. بدأ الخلافُ بسيطاً، ثم ضربت جذوره في الأرض فصار عداوةً صريحة. صار الولدُ يضرب الباب بعنف كلما خرج من البيت، والأب يضرب كفّاً بكفّ متحسِّراً على هكذا جيل .. والأم تضرب في المندل عند بصّارةٍ وعرّافة، على أمل أن تهدأ الأمور، فتعود

إلى سابق عهدها في الرقص. وأما البنت فقد انسحبت تدريجياً من هذا الجوِّ الذكوريّ المكهرب، ووجدت لنفسها صديقةً فيسبوكيّةً متفهّمة تقطن في جزيرةٍ نائية، وصارتا تمضيان الوقت في الدردشة.

وعندما وصلت الأمور إلى درجة أن الولد قدّم لمصلحة الضرائب، كشفاً حقيقياً بِدخل أبيه وأرباحه، لم يجد الأبُ مناصاً من أن يكشف للصحافة عن فضائح ابنه .. فصار الوضعُ في البيت لا يطاق ... اعتبرت الأم الموضوعَ ضرباً من الجنون .. هربت البنت إلى الجزيرة النائية؛ حيث وجدت لها صديقتُها عملاً كضاربة على الآلة الكاتبة، وأقامتا معاً، ثم انقطعت أخبارهما بعد ذلك.

وأما الخادمة فقد باحت للابن في ساعة صفاء بحبّها القديم له، والذي تخفيه منذ سنوات، فتسارعت ضربات قلبه ثم تزوجها وهربا إلى الخارج.

جلس الأب في الشرفة؛ يفكّر في ما آلت إليه الأمور، ويضرب أخماساً بأسداس ... لم تأبه له زوجته التي كانت مسترخيةً في غرفة الجلوس؛ تشاهد على التلفاز برنامج مسابقات عن أفضل ضاربِ إيقاعٍ على الطبل.

قال الراوي: ولمّا ضربت هَزَّةٌ أرضية متوسطة بيتَ آلِ جدول الضرب، وتكسّر بعض الأثاث .. لم يحزن الأب والأم .. إلا على الطنبور .. وبدلة الرقص.

تصارعت المعادنُ فيما بينها يوماً؛ فَحديدٌ فَلَّ حديداً، ونُحاسٌ زال طلاؤه فَبَهَت، وصفيحٌ علاهُ الصدأ فاهترأ. وافْتَرَّ ثغرُ الفضةِ عن ابتسامةٍ وراءها ما وراءها، وتولَّى الذهبُ كِبْرَهُ، ثم مضى كُلٌّ إلى مَصهَرِه. ومن بعيد، وقفَ حفيدُ الفحمِ يتأمّل بصمتٍ نبيل ـ وحُقَّ له ـ فلولا جميلُ صبرِهِ على الضغط والحرارة، لَمَا صار ألماساً.

احتالَ عليه، واقتنص منه مالاً بغير وجه حق. احتسبَ الثاني ولم يعاتب. وما زالا إلى يومنا هذا؛ كلما تقابلا .. واحدٌ يُدَلِّكُ، دون جدوى، مكاناً مَنسِيّاً في كيانه اسمه الضمير، والثاني يتقلّب في جنة الرضى.

أرادت أن تثبت لنفسها أنها أنثى، فجهدت كي تشغل بالهما .. صدّها الأولُ معتمداً على نفسه، فتهاوت حصونه الوهمية بعد أيام ... اعتصم الثاني بالله، وأخذ بالأسباب فنجا. وما تزال هي إلى الآن، تتبجّح بأعداد مَن ركعوا أمام قدميها؛ وتعلم في قرارة نفسها كم هي كاذبة.

ضحك الأب بخشونةٍ ضحكةً طويلةً متحشرجة، عدّل من طريقة جلسته، وقال لابنه الشاب:

ـ ما زلتَ تبكي على اللقمة وتريد عروساً ! اخرس واغرب عن وجهي .. قال زواج، قال.

وحتى يومنا هذا، ما زال ذلك الشاب .. وفي اليوم الأول من كل شهر .. وبعد أن ينفق نصف راتبه على ممارسة الحرام لمرة واحدة ... يعدّل من طريقة جلسته،

ثم يضحك بخشونةٍ ضحكةً طويلةً متحشرجة، ويقول: «قال زواج، قال».

الحمدُ لله. والصلاةُ والسلامُ على المُختار وآله وأصحابه الذين ـ لو عرفوكم ـ ما شعروا بالغيرة ... عبادَ الله، كونوا عِباداً لله، لا لِدُنيا ودينار. اللّهُمَّ لا تدعنا في غمرة.

(يجلس .. يشرب جرعة ماء .. يقوم)

إن الحمد لله فاعرفوه، والصلاة والسلام على محمدٍ فاتّبعوه، وعلى آله وأصحابه ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .. يوم الدين الذي لو عرفتموه ما نمتم .. أقم الصلاة.

بانتظار فَرَج

«لم يأتِ فَرَج، تأخَّرَ فَرَج، تُرى ما الذي أخَّرَهُ؟! الغائبُ حجّته معه» ... لا يكفّ صابر الزيزفوني عن ترديد مثل هذه الكلمات كلَّ يوم؛ على خشبة مسرحه الخاص .. الكائن على ناصيةِ شارعٍ من أشهر شوارع مدينة الوهم .. مدينة الوهم التي تقع في مكانٍ ما من عالَمِهِ الداخلي، أو بعبارةٍ أدقّ؛ في مكانٍ ما من رأس الأستاذ صابر.

ذلك المسرح في داخل صابر، ملاذهُ عندما لا يفهمه أحد، أو عندما يتوهّم أنْ لا أحدَ يفهمه .. يتخيّل جمهوراً من الجهابذة الذين يتجمّعون، كما في كل يوم، كي يشاهدوا مسرحيته التي لا تنتهي فصولها، والتي هو كاتبها ومخرجها ومصمم ديكوراتها، بل والممثل الوحيد فيها.

مسرحية الحياة .. المسرحية الكبرى .. وتسمياتٌ أخرى كثيرة، لم يكن صابر يتداولها إلا بينه وبين نفسه. وأما العنوان الحقيقي فهو: «بانتظار فَرَج» ... ذلك العرض المسرحي المتكرر الذي لم ينقطع منذ سنوات، والذي تفنَّنَ صاحبه في الإضافة إليه وتحسينه، فقط كي يظل غارقاً فيه.

نصَّبَ صابرٌ نفسه مَلِكاً على مشاعر جمهوره الذي لا وجودَ له؛ يجعلهم يصفقون عندما يريد، يعرف متى وكيف يجعل آهات الإعجاب تتردد في أرجاء الصالة .. وحتى في بعض الحالات التي يشعر فيها أنه استرسل في ارتجالٍ ما؛ يسارع إلى جعلِ أحد الحاضرين يسعل، أو أحد الأطفال يبكي، ثم يتظاهر ملكُ الخشبةِ بالانزعاج ويعطي الجمهور استراحة.

في عالم نجاحه الفني الباهر، والذي لم يكن، حسب زَعْمِه، إلا وعاءَ طُروحاتٍ فكريةٍ عميقة

تعالجها المسرحية، لم ينس الجهبذُ أن يرسم على جدران وَهْمِهِ صوراً لبعض وجوه المشاهدين من جمهوره .. أناسٌ معيّنون لا يجلسون إلا في أماكن محددة ومميزة ... الصف الأول مثلاً، أو تلك الكراسي في أول صف المقاعد؛ عند الممر .. ومنهم، بطبيعة الحال، سيداتٌ من هواة فن المسرح الراقي، ومن عاشقات مدرسة المسرح الصابريّ الذي أتى بما لم تأتِ به الأوائلُ.

لم يكن للعرض وقتٌ محدد، فَمَلِكُ مشاعرِ المشاهدين يأمرهم، في وَهْمِهِ، متى أراد، فيطيعون .. يأتونَهُ ساعينَ مستبشرين، متشوّقين لِسماعِ جديدٍ أو مزيد.

وأما في عالم الواقع .. في العالم الحقيقي ... فقد كان الناسُ القريبون منه؛ جيرانه ومعارفه ـ ولم يكن له أصدقاء بالمعنى الحقيقي للكلمة ـ كانوا جميعاً

يعرفون أن شيئاً ما يحدث ... لم يكونوا يعرفون ما الذي يجري فعلياً على خشبة المسرح الصابري، بل لم يكونوا قد سمعوا بقصة المسرح أو بقضية (فَرَج) الذي ينتظره الجميع .. كل ما هنالك أنهم كانوا ينتبهون إلى شرود صابر أحياناً؛ في الفترات التي لا يكون فيها منعزلاً في بيته، ويلاحظون أيضاً انغلاقه على نفسه بين أربعة جدران، لأيامٍ وأيام.

عملياً، لم يكن صابر مجنوناً ... أحمق، ربما .. يحدّث نفسه كثيراً، ممكن .. لكن أحداً من جيرانه في الحي لم يكن لِيَشُكَّ للحظة، أنه كان على وشك الجنون .. على بُعْدِ خطواتٍ قليلة من التحوّل إلى مرحلة فقدان العقل تماماً.

كيف عرفوا؟! .. إنها غلطةُ الشاطر، أو فَلنَقُلْ أنها العادة .. العادة التي لم يكن ينبغي لصابر أن يدعها تتحكّم فيه .. إنها عادة المشي.

دَعْ عنكَ الآن الكلامَ عن الساعات الطِوال التي كان صابر يقضيها في منزله؛ يحدّث جمهورَهُ الغفير، مؤدياً المشاهدَ بصوتٍ مسموعٍ أحياناً، مُشيراً بيديه وبحركات جسمه، وبتعابير وجهه ... فواقعُ الحالِ أنه كان يضيق ذرعاً ـ كل حين ـ بالبقاء محبوساً بين الجدران والنوافذ المغلقة توخياً للخصوصية .. كان يتوق إلى المشي في الشارع؛ إلى استنشاق الهواء النقي ... فيتابع ممارسةَ أدائه المسرحي الفذ، وهو يمشي .. نعم، كان جسده الحقيقي يمشي، وصابر الثاني .. صابر الممثل يتحرك على خشبة المسرح.

في البداية، كان يحرص على أن يمشي بشكلٍ طبيعي، دون أن تندَّ عنه أيُّ حركةٍ أو لفتةٍ يمكن أن يُفهم منها ما الذي يدور في أرجاء وَهْمِه ... بل إنه كان يتلذذ بكون الناس يرونه، وهم لا يدرون ما القصة؛ يشاهدون صابراً الخارجي فقط. ولطالما نظر إليهم على

أنهم من الرُّعَاع الجاهلين، الذين لا همَّ لهم سوى المال والأكل والجنس.

وشيئاً فشيئاً .. وبحكم اندماجه في الأداء، ولأنه ـ عملياً ـ لم يكن يؤدّي الأدوار بل يعيشها ... بدأت تندُّ عنه حركاتٌ أثناء مشيه في الشارع .. لفتاتٌ أحياناً، حركاتُ يدٍ غاضبة أو محذِّرة، تعبيرٌ يرتسم على وجهه، استهزاء، استهجان، ابتسامة أو حتى ضحكة. وهكذا إلى أن بدأ صوتُ صابر الداخليّ يغزو فَمَهُ وشفتَيه.

تسلل الصوتُ الداخليُّ بدايةً، بحذرٍ وهدوء .. قنعَ في البدايات ببضع كلماتٍ نطقَ بها صابر بصوتٍ خفيض .. تفاقمَ الأمر .. ثم صار صابر ينطق بأرباعِ أو أنصافِ جُمَلٍ؛ جِهاراً وهو يمشي في الشارع، ثم يتداركُ الأمرَ عندما ينتبه إلى نفسه؛ بأنْ يسرع في المشي أو يغيّر وجهته.

هل كان لِصابر أن يهتمَّ إذا ما لاحظ أحدٌ أو انتبه إلى سِرِّهِ الأعظم؟! بالطبع لا .. فالغالبية العظمى من الناس لم يكونوا في نظره أكثر من جَهَلَةٍ لا يعرفون عن الحقائق الكبرى شيئاً. وأما تداركه لأخطائه، فلم يكن إلا من لوازم التحفُّظ الضروري لمتابعة مهمته الكبرى.

وأما مَن هو فَرَج .. فَرَج الذي جَنَّدَ صابرٌ كلَّ ما أمكنه من تَفَكُّرٍ وتأمُّلٍ وتوقُّعٍ وخيالٍ واستشرافٍ واستقراءٍ واستنباط ... بل ودراساتٍ ـ حسب زعمه ـ كي يفهم لماذا لم يأتِ حتى الآن .. فَرَجُ هذا، حبيبُ صابرٍ وهوى فؤادِه.

فَرَج بالنسبة لصابر، هو المُنتَظَرُ والمأمول .. هو حلَّالُ العُقَد، وجالِبُ السعادة، وقاهرُ الأعادي ... فقط فَلْيَأتِ، ثم سَيُري صابرٌ أولئكَ الهَمَج كيف يكون النصرُ والسؤدد، ولِمَنْ تكونُ الغَلَبَةُ.

فَرَج هو المالُ والغِنى .. وهو ماحي آثارِ النكدِ والتعاسة ... إنه فَرَجُ الذي ـ إنْ أتى ـ سيُكَلِّلُ رأسَ صابرٍ بِالغَار. وكيف لا، وصابرٌ مؤسِّسُ نظريةِ انتظارِه .. وواضِعُ أسسِ كيفيةِ انتظاره .. والمحللُ الاستراتيجيُّ الذي لا يحتاج إلى أي قناةٍ فضائية تستضيفه كي يتفوَّه بالدُّرَرِ وعميقِ الحِكَم الشارحةِ أسبابَ غيابِه .. يكفيه جمهوره من الخاصّة ... جمهوره الذي لم يترك يوماً، حضورَ عروضِ المسرح الصابريّ والتصفيق لروائعه.

طبعاً .. تُرَّهاتُ ما يُسمّى بالـ (مسرحِ التفاعليِّ) لم تكن واردةً في قاموس الأستاذ الزيزفوني على الإطلاق ... فإيجابيةُ الجمهور، على الرغم من صمته الدائم، كان صابرٌ على استعدادٍ تام لأنْ يُقسِمَ بأنه يراها رأيَ العين كلَّ ليلة ... صحيحٌ أن صابر بيك هو المتكلمُ الوحيد، والباقي مستمعون .. إلا أن «في صمتهم

من التفاعل والإيجابيّة ما لا يفهمه كثيرٌ من المتشدّقين بأكاذيب احترام عقل المتلقّي».

ولكن ... في عُمقِ أعماقِ صابر، كانت هنالك مساحةٌ غير مضاءةٍ بشكلٍ كافٍ .. حتى صابر نفسه يخشى أن يُسلِّط عليها بصيصاً من الضوء؛ يخاف من ذلك ومن تَبِعاتِه ... تلك المساحةُ التي ربما لها ما يُماثِلُها في كلِّ إنسان، يكتبُ فيها قلمُ الصراحةِ مع الذات، ما لا يكتبه على أي مساحةٍ أخرى.

على سطور تلك المساحة النظيفة مِن عالم صابر الداخليّ، كتبَ قلمُ الصدقِ: «هل تريدُ فعلاً، وتتمنّى من كل قلبك .. أن يأتي فَرَج ؟!».

لم يَنْسَ قلمُ المكاشفةِ أنْ يُتْبِعَ إشارةَ الاستفهامِ بإشارةِ تعجُّبٍ، فقد كان الجوابُ معروفاً: لا .. إذ لو جاء فَرَج حقيقةً، ولو بعد طول انتظار .. فما الذي سيبقى مِن مكانة صابر .. لا شيء.

كُلُّ المجدِ الأدبي الذي بناه الجهبذُ في عالم أوهامه، كان مبنياً على فكرة الانتظار .. تفنَّنَ في كل شيءٍ يتعلّق بذلك؛ في تحليل أسباب الغياب، وفي قَتْلِها بحثاً ودراسة .. ثم في بُكائيّاتِ طولِ الصبر والترقُّب، بكل ما فيها مِن إشاراتٍ مبطّنةٍ ومغطّاةٍ بطبقاتٍ سميكةٍ، وكلُّها تلمّح إلى أنه ـ بما أنه لم يأتِ ـ فلن يأتي .... كان الموضوعُ باختصار تَلَذُّذاً بتعذيب الذات مَبنيّاً على القنوط، ينطلقُ أساساً من إعدام الأمل لا من انعدامه .. ثم التفنُّن مرةً أخرى في وصفِ انعدامه، بعد ما تمَّ قَتْلُهُ عمداً.

نصوصُ مسرحياتِ صابر الزيزفوني لم تتضمّن كلمةً واحدة عن المرحلة التي بعدَ مجيء فَرَج ... كان المؤلف يكذب بطريقةٍ مبتكرة مثيرة للسخرية؛ كان يُوهِمُ جمهوراً مُتَوَهَّماً ! وليتَ الأمرَ كان مجرد قُعودٍ في بُرجٍ عاجيّ، يتلذذ سَاكِنُهُ بالقول لنفسه كلَّ يوم: رُعاعٌ

لا يفقهون شيئاً .. أنا فقط مَن يفهم. كان الأمرُ أكثرَ سوءاً؛ فالأستاذ ينزل كل يوم من برجه كي يحدِّثَ (الرعاع) بالأباطيل.

الكذبُ المستمر على الذات، إذا تفاقم، امتدَّ وتطاولَ، ثم بلغَ مرحلةَ تسويقِ الباطل للآخرين. وفي حالة صابر، كان التسويقُ على سويّةٍ عاليةٍ من الأداء.

والجاهلون القصيرو النظرِ، ربما رأوا في صابر حالةً إنسانيةً يُرثى لها .. ولربما تساءلوا: «ما الذي جناهُ هذا المسكينُ كي يُبتلى بمثل ما ابتُلِيَ به؟! إنه يكاد يُجَنُّ».

حسناً .. تلك الفئة من الناس، ممن يفكرون بمثل هذه الطريقة، هم أكثرُ الناسِ استعداداً لأنْ يكونوا جمهوراً للمسرح الصابريّ؛ لو أنَّ هذا الأخيرَ كان مسرحاً فعلياً يراه الناسُ في الواقع. لكن رحمةَ الله تبارك وتعالى، قد أَبْقَتْ ذلك الجهبذَ المصيبةَ في

داره؛ لا يبرحها إلا قليلاً، وإلا لَكان تأثيره على الناس كارثياً.

وفي ليلةٍ من ليالي المسرح أواسطَ أيلول، داعبَتْ نسماتٌ وجهَ الأستاذِ، فألهَمَتْهُ .. لمعت الفكرةُ، فوضعَها موضعَ التنفيذِ فوراً ... بدأ صابر يتكلم باسمِ فَرَج نفسه .. تَقَمَصَّهُ، لَبِسَهُ، عاشَهُ، بل سَمَحَ لنفسه أنْ يُنْطِقَهُ كما يحلو له .. فكانت المفاجأة.

ـ كذَّاب.

سمعها صابرٌ بأذنيه .. سمع تردُّدَ صداها الذي رنَّ في جنبات الصالة .. مَن هذا الذي يتكلّم في حَضْرَةِ الأستاذ ؟! جال صابر ببصره بين وجوه الجمهور، حاول أن يقرأ ردود فعلِهم تجاه ما سُمِع .. كانت النتيجةُ واضحةً وضوحَ الشمس؛ لقد سمعوا جميعاً.

أعاد النظر بين الجمهور وهو يحاول أن يجد قائلَ الكلمةِ بينهم، فلم يُفْلِح. كان الجميع مستغربين وخائفين في الوقت نفسه، وينظرون نحو الخشبة .. يتوقَّعون من الجهبذ ردةَ فعلٍ عنيفة، أو تأنيباً على أقل تقدير.

وعاد الوعي الفطريُّ إلى صابر، لكن بشكلٍ نسبيّ .. تذكَّرَ أنه ـ هو نفسه ـ يمارس الكذب على نفسه، وأن هؤلاء الشاخصين بأبصارهم نحوه، ما هُمْ إلا أبناءُ وَهْمِهِ واختلاقِهِ.

تَمَّ كلُّ ذلك في ثوانٍ قليلة .. ثم اختلطت الأمور فيما تبقّى مِن عقل صابر، وعاد يتوهّم أن الكلمةَ الاستنكاريَّةَ التي سَمِع، ما هي إلا بنتٌ مِن بناتِ وَهْمِهِ، وما أكثرهن ... فَهَمَّ أن يتابع الأداء كأن شيئاً لم يكن .. وما إنْ تفوَّهَ ببضع أحرف حتى سمعَ الصوتَ من جديد ...

ـ كذّاب.

نفس الكلمة، لكن بنغمةٍ أكثر تأكيداً .. أكثر إغاظةً وتَعَمُّداً ... وصَعَدَ الدمُ إلى رأس صابر الزيزفوني دفَّاقاً حتى احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، وشَرَعَ يبحث بِناظِرَيْهِ بين الجمهور عن الفاعل، وكأنه محقق جنائي. كان التململُ بادياً على وجوه الجمهور .. الجمهور الذي ظلَّ لسنوات صامتاً يتلقّى .. الجمهور الذي أبى وَهْمُ صابرٍ إلا أن يختلقَهُ اختلاقاً؛ كي يضمن ولاءَهُ وسكوته الدائمَين.

ـ ألا تريد أن تردَّ عليَّ .. أقولُ لك: كذاااب.

ـ ماذا ! .. مَن أنت ؟ ... أين أنت ؟

ـ أمّا أين أنا، فَكُنْ متأكّداً أني في مكانٍ آخر غير رأسِكَ الفارغ هذا، إلا مِن الأوهام طبعاً؛ فأنا لستُ مِن أبناءِ

خيالاتِك. وأمّا مَن أنا، فهل أنت متأكّدٌ أنك تريد أن تعرف؟

وانتشرت همهماتٌ بين الجمهور .. بل إن بعضهم تلفَّتَ محاولاً أن يجد مصدر الصوت، فازداد صابر غيظاً؛ لقد بدأت الخيوطُ تنفلت من بين أصابعه ... نطقَ غضبُهُ قائلاً:

ـ قُلْ مَن أنتَ يا هذا .. أو أَظْهِرْ نفسك إنْ كنتَ شجاعاً.

ـ أنا أشجعُ منك ومن الزيزفونيّ الكبير وسلالته، أيها المسكين.

ـ كيف دخلتَ إلى هنا ؟

ـ أنا أدخلُ إلى هنا منذ سنواتٍ يا صديقي، وحضرةُ جنابِكَ لا تشعر بشيء .. كم تحمَّلْتُ الاستماعَ إلى ترّهاتك كلَّ مساء.

همسَ وَهْمُ صابرٍ في أذنه أن ولاء جمهورك لكَ بالكامل، فاستعملْهُ ... تَمالَكَ صابرٌ نفسه، أَلْبَسَ وجهَهُ لَبوساً من النبالة المصطنعة، ثم قال بلهجةٍ شكسبيريّة:

ـ حسناً .. أتحدَّاكَ أيها الدخيل، أمام هذا الجمهور الكريم، أن تُفْصِحَ عن اسمك.

ـ سأقولُ لك مَن أنا .. أنا فَرَج ... فَرَج القادري.

لم يجد الأستاذ الزيزفوني حلاً أفضل من إغلاق الستارة؛ وكأن عرض هذا المساء قد انتهى .. ثم ارتمى على فراشه منهكاً وفي رأسه ألف شيطان.

ظهورُ فَرَج، ولو بِصَوْتِهِ فقط، كارثةٌ لم يتوقعها صابر. كانت مفاجأةً تمنّى الزيزفونيُّ من أعماقِ قلبه، ولمدة سنوات، أنْ لا تحدث. لكن ما صار قد صار،

فكان لا بد لعبقريِّ المسرح من أنْ يَجِدَ حَلّاً ما .. حَلّاً سريعاً يتدارك من خلاله الضبطَ الذي انفلت من بين أصابعه ... ولقد حالفه الحظُّ إذ أغلقَ الستارةَ فَسَمِعَ تصفيقاً. صحيحٌ أن التصفيق لم يكن في نفس درجة الضجيج التي تتكرر في كل ليلة، لكنهم على الأقل صفَّقوا، وانتهت الأمسية بسلام.

هل يمكن تجاهُل الحقيقة؟ .. سؤالٌ أقضَّ مضجعَ صابر طيلةَ الليل ... الصوتُ كان حقيقةً لا مِراءَ فيها؛ سمعه صابر بأذنيه. لعلَّ طولَ التعاملِ مع الأوهام يجعل الحقائق ـ إذا بَدَتْ ـ غيرَ قابلةٍ للتكذيب.

وطالما أنه لا مجالَ للتكذيب، فالتجاهل إذن .. وجدَها صابر الزيزفوني، وكاد أن يصيح وهو مستلقٍ على فراشه: Eureka. لقد اتُّخِذَ القرارُ .. تماماً كما يحدث في كل ليلة أثناء إعداد النص للعرض التالي في

مساء غدٍ؛ عندما يأبى النعاسُ أن يزور جَفْنَي صابر إلا بعد تفكيرٍ طويل فيما سيقوله غداً لجمهوره المتعطّش.

وطَغَتْ فكرةُ التجاهلِ على مساحة الإبداع لدى الجهبذ، فما تركت لغيرها مكاناً ... لدرجة أنه قرر أن يكون نصُّ مساء غدٍ، ارتجالاً بالكامل. سيقول ما يشاء؛ دون أي إشارةٍ إلى ذلك الغبي الذي حاول لَعِبَ دور فَرَج.

تلك الفكرةُ كانت آخرَ ما تَفَتَّقَتْ عنه تأمُّلاتُ صابر أثناء محاولته اليومية للنوم: «كاذبٌ وغبيّ» ذلك الذي تجرَّأ على مقاطعته، «لا أكثر .. لا أكثر».

وفي مساء اليوم التالي، وفي الموعد المعتاد، تلكَّأَ صابر قليلاً قبل رفع الستارة .. ثم حسم أمره.

وصدحت في الصالة موسيقى لم يكن الأستاذ قد أدرجها في ملف الإخراج .. موسيقى صادمة.

ألجمت الموسيقى لسان صابر، لا لأنها صاخبة وحسب، بل لأنه لم يكن يتوقعها .. ولا يعرف متى ينتهي المقطع كي يبدأ هو بالكلام ... ثبتت الرؤيا .. لقد تم اختراق المسرح الصابري بالكامل.

وما إن انتهى المقطع الموسيقي حتى باشر فَرَجٌ القادريُّ الكلامَ فوراً .. ومن خارج الكادر ...

ـ لن أتوجّه، بمثل غبائكَ، إلى جمهورٍ لا وجودَ له .. أنت الجمهورُ اليومَ يا زيزفونيّ .. أنتَ أيها التَّعِس.

جهوريةُ الصوتِ أخرست لسانَ صابر ... كان الأداءُ محترفاً، وقوياً، وخالياً من أي ذرة تكلُّف ... وكأن الذي يتكلم لم يكن ممثلاً يؤدي دوراً .. كان صوتُ فَرَج يهزُّ كيانَ صابرٍ من الداخل؛ فيرتعدُ هذا الأخيرُ وهو في مكانه ثابتٌ لا يتحرك .. ولا يملك إلا الإنصات إلى صوتِ فَرَج ... إلى صوت الفَرَج ..

ـ كم راهنتَ على أني لن آتي، وأنا كنتُ حاضراً معك كلَّ يوم .. ولكنك أعمى ... كم تشدَّقتَ بالتلميح إلى أنه لا وجودَ لي، وكم تمنيتَ ألّا أكون .. ولكن ها أنذا .. كما في كل يوم، بل في كل ساعة ... أنا مأمورٌ، أيها الأحمق .. مأمورٌ بأن أحيطك برعايتي، وصدّقني أني أقوم بذلك رغماً عني .. لأني أعرف أنك لا تستحق .. ولكن لا حيلةَ لي ... لن أطيلَ أكثر .. لا لأنه لم يعد لديَّ ما أقول، بل لأني بالكاد أتحمّل الحديث معك ... أنا رزقُكَ السلبيُّ يا أبله .. فهل سمعتَ بهذا المصطلح؟! ... بالطبع لا .. فقد توقفتَ عن استعمال دماغك منذ زمنٍ بعيد .. جَمَّدتَهُ عند مرحلةٍ طابَ لك الوقوفُ عندها ساكناً، كي تمارس بعدها الاجترار ... خالقي وخالقُكَ وخالقُ كلِّ شيءٍ ومَليكُهُ يرسلني إليك كلَّ ساعة؛ في صيغةِ صرفِ سوءٍ .. أو إبعادِ شرٍّ .. أو تجنيبِكَ مصيبةً من مصائبك السوداء ... وأنت جَحود .. جَحودٌ يا زيزفونيُّ .. جَحود ... وقبل أن أتركَكَ .. هنالك بعضُ من إخواني يلحّون عليَّ الساعةَ أن أذكّرك بهم .. لحظة، لحظة ..

إنهم يقولون أن تذكيرك بهم مصطلحٌ غير صحيح، لأنك لا تدري بوجودهم أساساً ... على فكرة .. كلهم من عائلةِ الرزق الإيجابي .. ولكنك جاهل ... وواحدٌ منهم بالذات، يصرُّ عليَّ الآن أن أسمّيه لك .. إنه الأدرينالين الذي أُمِرَ منذ دقائق، أن يضبط تدفقه، كي تستطيع الاستماعَ إليَّ دون أن تموت من الانفعال ... أيها الأحمق الجاهل ... وبما أني أعرفك جيداً .. فأنا أعرف ما الذي يدور في رأسك الذي بدأ يعود إلى العمل منذ قليل .. لعلَّكَ تتساءل: ولماذا أحضرُ في حياةِ بعض الناس بصورةِ رزقٍ إيجابيٍّ مُعلَن، فَيَسودون وينتصرون ويصبحون فوقَ أعاديهم ... حسناً .. أولئك ليسوا مثلكَ يا زيزفونيّ .. لستَ منهم ولا مثلهم .. ولعلَّكَ لا تطمح لأنْ تكون .. سأتركُكَ الآنَ يا زيزفون، فقد جاءني الأمرُ بأخذِ إجازة .. علَّكَ تفهم.

هيَ

كانت تختصرُ تاريخَ البشريةِ وتحنو عليه، كانت تقرأ. بدا الكتابُ وقد استسلمت أركانُه القاسيةُ لراحتَيها، فنامت دفّتاهُ برضىً وباحَ بمكنونه لم يُخْفِ منه شيئاً. وأنّى له أن يخفي وقد استكان لتفهُّمِ عقلها وتعاطُف قلبها، ولجمال تمتماتٍ تردد صداها الخافتُ في أرجاء عالمها الداخليِّ الوادع، فانصاعَ المحيطُ الخارجي احتراماً. وكأنَّ السكونَ لم يفهم ما يدور هناك، في أعماقها، فأطبق عينيه إجلالاً لكَلِمٍ يُقرأ وفكرٍ يتجلّى.

وتجولت عيناها دونما خفرٍ على أسطرِ ذلك الطفل الكبير. تقافزَ إشعاعُهما بين الكلمات مرَحاً، ومعاودةَ استيضاحٍ، بل ومعاودةَ إعجاب. كانت الكلمات تعيش أحلى أيام طفولتها في كنف قلبها الكبير؛ تُشاغِبُ حيناً، وتتجمّل حيناً، قد تغضب أو

تتشدد فلا يهدئ من روعها إلا صفاءُ التلقي الأنثويّ الحاني المُتَفَهِّم، فتعود إلى رشدها.

وحتى عندما كان ضجيجُ طفولةِ بعض المفردات يزداد عند مرور العينين عليها أكثر من مرة، لحفظها أو تثبيت مؤداها، كانت رحمةُ المودةِ تُسْكِنُها، والأملُ في أن تصير يوماً ما بعضاً من مفرداتها الخاصةِ، يحدوها.

وأما تنهداتُ الصبرِ على الإطالة، على قِلّتها، فقد جعلت الطفلَ الكبيرَ يرتعد مخافةَ أن تؤدي إحدى حماقات استغراقِ الكاتبِ في السرد، إلى تململٍ غير ذلك التململ اللطيف إذ تُغَيّر من طريقة جلستها.

كان الكتاب في رحاب طُهْرها قد سَكَن، وباتَ في واحة هدوئها يتذكر رحلة صحرائه الشاقة؛ من يد كاتبه المتعَبة الشقية إذ تكبح جماحَ القلمِ عن البوح بزوائد عصارة الفكر، إلى صرير القلم في الليالي

الباردة، وحتى جروح مشرط الرقابة الحاد، وصولاً إلى تيهِ البحث عن ناشرٍ عادل، ثم إلى النوم على غبار الرفوف الظالمة. وقُلْ عن غربة الارتحال بين المعارض ما شِئت ... وهكذا إلى أن تلقفته يداها بحنان.

وبدأ يتذكر ... عندما دخلتْ إلى جناح المعرض، وبدأت تتوقف عند كتبٍ غيره؛ حكمتْ ظروفُ الترتيبِ أن تجعلَهُ بعدَها .. كادت نارُ الغيرةِ أن تُسيل حبره!

ردهةُ الجناحِ ذاتُ اتساعٍ باردٍ مخيف يخلو إلا من بضع زائرين؛ زادت جدّيتُهم من وحشته ... طال وقوفُها عند أحد الكتب، وطال انتظارُه .. «ما الأمر؟! أهي فريدةُ العصرِ هذي التي تطالعينها؟! أنا هنا!».

وما إنْ بدأ عطرُها يقترب، حتى بدأتْ آلافُ الشتائمِ التي نزلتْ على رؤوس كافة أنواع الجهابذة وممتلكي نواصي اللغات، وعلى نواصيهم، بالتلاشي.

ولأول مرةٍ في حياته، عرف معنى أن يكون للحضور الجميل طغيانٌ محبوب لا يُشتكى منه.

ولامسته يداها .. كانتا ناعمتين لدرجة أنه، في تلك اللحظة، غفرَ لكل مَن ساهم في انتزاعه من أصوله الأفريقية عندما كان شجرةً؛ يوَم اختطفوه وعجنوه باسم الحضارة وحوّلوه إلى ورق.

وتساءلَ .. هل ستشتريه فيصبح في عِدادِ خدمها الأوفياء؟! أيسعده القدرُ ويعوّضه عن عبوديةٍ مستمرة عاشها بين اختطافٍ وعجنٍ وتبييضِ بشرةٍ ثم تلويثٍ بأيدي مَن يدّعون زركشةَ أبيض العاج بأسود المسك؟!

ما أحلى أن تكون سيدتَه، تتناوله عندما تريد وتضعه كما تضع عنها شالها الدافئ عندما يحلو لها ذلك. نعم... هكذا العبودية الحقّة، لا كمثل الخنوع تحت رحمة أولئك المعقّدين أدعياء المعرفة.

يا للنبالة كم تحدّ من الأحلام، بل كم تفسدها. لم ينغّص عليه رؤاهُ و أحلامَ يقظتِه، طوال الطريق من المعرض إلى بيتها، ولم يُنْسِهِ فرحتَه بشرائها إياه، إلا تلك النواهي الداخليةُ التي تمنعه من أن يحلم، دون أن يعرف لها مصدراً. أضميرُهُ حيٌّ إلى هذه الدرجة؟! ألا يحقّ له أن يفكر، أن يفكر فقط ولو لقليلٍ من الوقت بمدى المكانة التي سيحتلها بين كتبها الأخرى؟! هل ستصحبه معها إلى الحديقة والمكتب فقط؟! أم يمكن أن تفكر مرةً بقراءته وهي مستلقية على سريرها؟! ثم ماذا لو حالفه الحظُّ وداعب النعاسُ جفونها الجميلة، هل ستنام وهو ما يزال بين يديها؟!

بين يديها .. وهي مستلقيةٌ على الكرسي الطويل تقرأ فيه، تقرؤه، تجوب آفاقَه وهو راضٍ مطمئن، تجتاح سكونَ بعض جنباتِه بطفولةٍ بدأ يكتشفها في

عينيها هي ... بدت له القناعةُ كنزاً لا يُفنيه إلا الاسترسالُ في الحلم. يكفيه الآن، وربما يكفيه للأبد، أنها رضيت باصطحابه إلى غرفة الجلوس واحتضانه وفهمه.

وجاء المساء. كل كلام ضيوفها في السهرة لا يهمه في شيء. كان ينتظر أن تقول عنه شيئاً. ألم تقرأ فيه أكثر من خمسين صفحة؟! ألا يستحق منها ولو كلمة؟! تحدثوا في عشرات التفاهات التي حفظها عن ظهر قلب .. كلهم هكذا ... وبقي هو على طاولةٍ صغيرة ينتظر الفرج. لا بد وأنها تَضِنُّ على مُحدِّثيها بأسراره. بل إنها لا شك آخِذتُهُ في آخر السهرة معها إلى غرفة النوم. ستقرؤه في هدأة الليل، ولن يعكر صفوَ خلوتهما أحد. ولْيذهب إلى الجحيم ذلك المتأنقُ بالتجليد الأحمر الفاخر والقابعُ ببلاهة على رفّ مكتبتها ينظر إليه بغباء.

ومنذ الساعة الثانية عشرة والربع ليلاً، وحتى طلع الصباح، ظلَّ يبحث في داخله عن الفارق بين أسلوب الغبي الذي ألّفَهُ .. وأسلوب الغبي الآخر الذي ألّفَ ذلك المتأنقَ بالتجليد الأحمر الفاخر؛ المتأنق الأبله نفسه .. الذي قامت في آخر الليل، هكذا وبكل بساطة، وتناولته من على الرفّ، واصطحبته معها .. إلى غرفة النوم.

بدأت أصابعه ترتجف وهي تتنقّل بين أزرار الآلة الحاسبة، وقَلبُهُ كذلك ... فبعد سداد المبلغ المترتب عليه حسب الشرط الجزائي الوارد في عقد التعهّد، ثم بعد دفع رواتب الموظفين ومكافآت نهاية خدمتهم، لن يتبقى معه إلا ما يكفيه كمصروفٍ للبيت لبضعة أشهر، لا أكثر ولا أقل ... ثم ماذا ؟!

«الحمد لله» .. قالها بصوتٍ منخفض وهو يلملم أوراقه استعداداً لمغادرة المكتب .. وجاءته رسالة نصّية .. نفس المرسل، ونفس المضمون تقريباً .... «هل فكرتَ جيداً؟».

قاد سيارته بهدوء في الشوراع شبه الخالية في هذا الوقت المتأخر من الليل .. قادها وكأنها هي التي تقوده ... تيارُ أفكاره المنساب بهدوءٍ كجدولِ ماء، جعل أعضاءه تتحرك آلياً .. وكأن الرضى تصارع مع القلق

فغلبه، وما عاد في وسع القلق المهزوم إلا أن يلمّح من بعيد كخنّاسٍ مُرهَق لا يملك إلا الهمس.

التاجر حين يفلس، يتذكر المقولة القديمة .. الشجرة تَعرى ثم تُكسى ... والله أكرم الأكرمين. ثم إنه ما أكل فلساً من حرام في حياته كلها، وأبوه من قبله كان كذلك ... توالت هذه الأفكار في ذهنه، فازداد الرضى سعادةً بنصره .. وازداد القلقُ حزناً وانكساراً.

في صباح اليوم التالي، تناول طعام الفطور مع عائلته بشكلٍ طبيعي، وكأن شيئاً لم يكن ... لا داعي لأنْ يشغل أحبابه بالتفصيلات ... ودّعته زوجته إلى الباب كعادتها في كل يوم ... لكن ما كانت تلك الرضيّة الطاهرة تجهله، هو أن زوجها لم يكن ذاهباً إلى قضاء يومِ عملٍ عاديّ، بل إلى مكتبه الذي سيُباع ـ مع المستودع والبضاعة ـ في جلسة مزاد علني

ستُقام بعد بضع ساعات .. في الثانية عشرة من ظهر هذا اليوم.

ريثما أدار المحرك قليلاً كي تدفأ السيارة قبل تحريكها .. نظر في جوّاله، فرأى رسالةً جديدة ... «نسبة الأرباح لن تخطر لك على بال» ... همَّ أن يكتب شيئاً، لكنه عَدَلَ عن الفكرة وتمتم بما كان ينوي كتابته: «حسبي الله ونِعْمَ الوكيل».

الطريق بين البيت والمكتب في هذا الوقت المبكر، دائماً مزدحمة .. الطلاب والموظفون وأصحاب الحِرَف .. كلٌّ قد خرج قاصداً بابَ مولاه الكريم الرزّاقِ ذي القوة المتين ... خفف سرعته قليلاً كي يسلّم على جاره الصيدلي .. ردَّ عليه جاره برفع يده اليمنى، ثم برفع كفَّيه وكأنه يدعو له .. أخبار المزاد كانت قد بَلَغَتْ كل الصيادلة تقريباً .. كيف لا وصاحبنا أقدمُ مورِّدٍ للأدوية في المدينة. تنهّد وهو

يدعو لجاره في سرّه؛ أن يجزيه الله خيرَ الجزاء .. وتابع طريقه.

على الإشارة الضوئية الأطول مدةً على طريقه، تتابعت مشاهدُ ما جرى معه، وكأنها مقطعٌ من الـ (يوتيوب) جرى إعداده على عَجَل ... تعهُّدٌ باستيراد كميةٍ كبيرة من الأدوية .. رسوُّ المناقصة على مرفأ عَرْضِهِ الأنسب سعراً والأجود نوعيةً .. ثم غَرَقُ سفينة الشحن قبل أن تصل إلى أي مرفأ .. عملٌ إرهابي ذهبَ بالسفينة بما عليها وبمن عليها ... شرطٌ جزائي لا يرحم .. وبندٌ دقيقُ الصياغةِ في عقد التأمين تمَّ تمريره بحيث لا يشمل التأمين هكذا حوادث إلا بشروط تعجيزية ... والنتيجةُ مزادٌ علنيّ؛ لأن ما بقي من حسابه المصرفي الذي رصده معظمه لدفع ثمن البضاعة لا يغطي مبلغ الشرط الجزائي ... مزاد علني بقي لموعده ثلاث ساعات وبضع دقائق.

على نفس الإشارة الضوئية ذات المدة الطويلة، تسارعت وتيرة الرسائل النصية من نفس المرسل، وحول نفس الموضوع ...

صديقٌ قديم من أيام الدراسة، عرضَ عليه عرضاً مغرياً يكاد لا يُقاوم ... نوع من الحل السحري، إنْ صحَّ التعبير .. سفينة .. سفينة أخرى يَصْعُبُ أنْ تتعرض لعملٍ إرهابي؛ لأن مالكيها والعاملين على سطحها إرهابيون لكن من نوعٍ آخر ... لصوص، لكن زعماءهم يرتدون بذلاتٍ فاخرةً ويرطنون نصف كلامهم بعبارات أجنبية سيئة اللفظ والمعنى ... تلك السفينة، وببساطة، تحمل على سطحها معملاً للأدوية .. نعم، للأدوية.

الفكرة باختصار أن الأطباء، عندما يأتي إليهم مريضٌ يشكو .. ويفحصونه فلا يجدون لديه ما يدعو للشكوى .. ويتأكدون من صحة تشخيصهم .. ثم

يصرُّ المريضُ الواهم على أنه متألّم ويريد دواءً ... يَصِفُ له الطبيب صنفاً معروفاً بين أهل الطب والصيدلة باسمٍ معروف: Placebo .. عبارة عن حبوب مضغوطة لا تحتوي إلا على النشاء وكمية قليلة من السكّر، مع صبغة لونية غير ضارّة .. نوعٌ من العلاج النفسي للوهم قائمٌ على الإيهام المضاد وبشكلٍ غير ضارّ في نفس الوقت.

والفكرة باختصار أيضاً، أن مالكي السفينة إياها .. تفتّقت عبقريتهم الإجرامية عن طريقة مربحة جداً لاستثمار فكرة الـ Placebo هذه .. فهم يتجولون بسفينتهم في المياه الدولية، والماكينات تدور على سطحها 24 على 24 ساعة .. لتصنيع كميات كبيرة من حبوب اللاشيء .. من أدوية الوهم .. لكن مع إضافة بسيطة، من باب الدعاية والترويج .. مطبعة ... مطبعة لتصنيع علب الدواء الوهمي، مع مجموعة من مصممي

العبوات الفنانين في استخدام الحاسوب ... مرةً يسمّون حبوب الوهم باسمِ منشّطٍ جنسي معروف ويضيفون إلى التركيبة صبغةً زرقاء اللون .. ومرةً يطلقون عليه اسمَ دواءٍ شهير لتقوية العظام بالكالسيوم ... وأحياناً باسمِ دواءٍ للأنفلونزا مدعّمٍ بفيتامين C وحينها لا ينسون الصبغةَ البرتقالية اللون ... وهكذا.

الفرق هذه المرة، أن الصديق القديم الذي يبدو أنه اعتاد على المتاجرة في كل شيء ... تواصل مع أهل السفينة المصنع .. واقترح عليهم أن تحمل العبوةُ الكرتونية اسمَ دواءٍ معروف لعلاجِ مرضٍ فعليٍّ وقاسٍ؛ انتشر في الآونة الأخيرة ... سعرُ الدواء الأصلي غالٍ جداً، لأن تكلفة التصنيع مرتفعة .. في حين أن هامشَ ربحِ خلطةِ النشاء والسكّر، واسعٌ جداً .. ولعلّه أوسع من ذمة ذلك الصديق القديم، مع أنها

ذات أبعاد فلكية .. لكنه يحتاج إلى موزّع .. إلى مستوردٍ معروف يأمنه الناس.

على الإشارة الضوئية نفسها، والتي طالت مدةُ الوقوفِ بجانبها هذه المرة أكثر من المعتاد .. اتّخذ صاحبنا قراره .. حسمَ أمره .. ركل بقدمه ذلك الإغراءَ النتن الذي تفوح منه رائحة المال الحرام المغسول بدماء المساكين. وأرسل رسالةً واضحةً لا لَبْسَ فيها؛ تكاد حروفُها تشقُّ بعنفوانها عنانَ السماء .. «لا».

ثم على الإشارة الضوئية نفسها، وعندما أضاء مصباحُها الذي يشير إلى أن الطريق صار سالكاً ممهداً .. وما إنْ همَّ صاحبُنا بالانطلاق، حتى فُتِحَ بابُ السيارةِ فجأةً .. صعدت امرأة شابة .. صفقت الباب .. وقالت كلمةً واحدة:

ـ اِطْلَعْ ...

ـ ماذا ! .. مَن أنتِ ؟! .. ماذا تريدين ؟

جاء جوابُ المرأةِ حادّاً كالسكّين:

ـ اطلعْ .. وإلا صرختُ، وجمعتُ عليكَ الناسَ قائلةً أنك تخطفني.

أطاعَ صاحبُنا ، مرغماً على أمره .. لم يعرف أين يتّجه، حاول أن يسأل .. انتبهت هي إلى ما يريد قوله، فبادرته:

ـ تَوَجَّهْ إلى أي مكان ... المهم .. لا تقفْ قبل أن أقول لك.

في الطريق، كان الحديثُ واضحاً لا غموض فيه .. عَرْضٌ لبضاعةٍ، لكن من نوعٍ آخر .. وبدون مناقصة هذه المرة، فالسعر محدود ... وأما البضاعة، فَلَحْمٌ رخيصٌ لعلّه مسموم، بل إنه لكذلك .. وأما السعر فظاهِرُهُ رقمٌ دالٌّ، وباطِنُهُ فقرٌ وفاحشةٌ وسبيلٌ سيئ ثم نارٌ وعذاب ... شروط البيع ميسّرة؛ أي مكان للخلوة ...

وتدّفق الدمُ الذي كان، لمدة أربعة أيام، لا يجد مَصَبّاً له إلا في دماغ صاحبنا الباحث عن حلٍّ لمصيبته .. تدفق إلى أماكن أخرى من جسده؛ لا تفكّر ... وساهم كلٌّ من انشغال البال، وضغط الدم، والمفاجأة، ورائحة العطر، وإصرار المرأة .. كل ذلك، ومعه الشيطان .. في جَعْلِ الجسد يستجيب استجابةً أوليةً دَفَعَها العقلُ بسرعة .. زجرها .. نهاها .. ذكّرها بأنه لم تُخلَق لذلك ... وأنها ـ وإنْ عملت ـ فلا ينبغي أن تعمل كذلك .. فَارْعَوَت، وسكنت، ثم تلاشت.

لم يأخذ الموضوع أكثر من بضع ثوانٍ، عاد العقلُ بعدها للعمل باسمِ الله ... فسارع صاحبنا إلى الحل التقليدي: «أَهِنْ فِلْسَك ولا تُهِنْ نفسك».

ـ كم تريدين ؟

سمَّت له مبلغاً ... وبعقل التاجر الذي يحسب بسرعة، استنتج صاحبنا أن المبلغ الذي طلبته يساوي

مصروف عائلته لمدة شهر؛ أي ربع المبلغ الذي سيتبقى في جيبه بعد أن يتم البيع بالمزاد وسداد الديون .. هذا في أحسن الأحوال المتوقعة؛ أي إذا لم تهاجمه ذئاب المزادات وتنحر آماله على مذبح التبخيس المتعمّد.

وسمعت المرأة كلاماً، لعلها لم تتوقع أن تسمعه في حياتها، ولا حتى في أحلامها ...

- إذا أعطيتُكِ المبلغ الآن، ولا أريد منك شيئاً بالمقابل .. هل تنزلين من السيارة دون ضجة ؟

وتمَّ الأمر ... لكن دمعةً سالت من عيني المرأة؛ أَخْفَتْها بسرعة وهي تغادر .. كانت، بالنسة لصاحبنا، كأول الغيث إذ يبشّر بالفرج .. فتابع طريقه حامداً المولى الكريم .. إلى أن وصل إلى المكتب.

سلّم على أمين سره، فردَّ الرجلُ التحيةَ بأحسن منها وهو يبتسم ابتسامةً يشعُّ منها الفرح ..

ـ أستاذ شكر .. لقد اتصل مدير المصرف و ...

ـ وقال إن الرصيد لا يغطّي ..

ـ بل قال إن تحويلاً مصرفياً وصلَ مساء أمس: قيمته تغطّي مبلغ الشرط الجزائي وتزيد .. تزيد كثيراً ... التحويل جاء من مصرف في فنزويلا.

ـ فنزويلا ! .. مِمَّنْ ؟

ـ لا أعرف .. لكن مدير المصرف ألحَّ عليَّ بطلب .. إنه يقول لك: افتح بريدك الإلكتروني حالاً.

أكثر من نصف الرسالة الإلكترونية كان مكتوباً بالعاميّة، والباقي بلغةٍ عربية ضعيفة ... واضحٌ أن المرسِل أحدُ العرب المهاجرين منذ فترةٍ طويلةٍ أضعفت علاقته بلغته الأم .....

أخي شاكر

أنت لا تعرفني، ولم نلتقِ سابقاً ... لكن أبي وأبوك .. الله يرحمهم .. كانوا شركاء من زمان، من خمسينات

القرن الماضي ... أنا وُلِدت هنا في فنزويلا. وأتمنى أن آتي لدمشق يوماً ما ..... ما تواخذني أنا ما بعرف اكتب عربي منيح .. ولكني أرفقتُ برسالتي هذه صورةً عن وصية أبي ... وعندما تقرؤها ستفهم كل شيء.

لغةُ الوصيةِ كانت شيئاً آخر تماماً ... كان المُوصي رجلاً يعرف لغته كما يعرف دينه، ويعتزّ بهما ... وَرَدَ في إحدى فقرات الوصيّة:

«ولمّا اضطررنا ـ أنا وأخي أبو شاكر ـ لِفَضِّ الشراكة التجارية التي كانت بيننا أخوَّةً أكثر منها شراكة .. بقي بندٌ واحد؛ لم نختلف عليه، بل ادّعى كلٌّ منّا أن المبلغ المالي المتعلق بذلك البند إنما هو حقٌّ لشريكه لا له. ولما طال أمدُ النقاشِ وكلٌّ يريد أن يتنازل للآخر عن المبلغ فلا يرضى الثاني .. استحلفني أخي أبو شاكر بالله أنْ أقبل تنازله لي عن المبلغ فقبلتُ دون نقاش ... ولكن بقي في نفسي شيءٌ ما؛

أقضَّ مضجعي. كنتُ خائفاً من أن أكون قد أخذتُ ما ليس لي، أو أن الحياء قد غلبَ أخي فتنازل لي ... ثم إنني هاجرتُ، وبدأتُ تأسيس تجارتي في هذه البلاد، واحتفظتُ في سجلاتي المحاسبية ببندٍ خاصّ بذلك المبلغ دون غيره ... وأوصيتُ المحاسبين أن يعتبروا ذلك المبلغَ حصةَ شريكٍ لي في أعمالي كلها وأن يودِعوا الأرباح في حسابٍ مصرفيٍّ خاص ... وآليتُ على نفسي أن أثمّر ذلك المبلغ ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. والآن وقد نال مني المرض، فإني أوصي ورثتي بإعادة المبلغ المذكور مع كامل أرباحه عن كل مدة إقامتي في هذه البلاد، إلى صاحبه الحقيقي أخي وصديق عمري أبو شاكر، أو إلى ورثته إنْ كان متوفّى. ولا عليهم إنْ شَكُّوا ـ أعني: ورثتي ـ فالمبلغ أقل من ثلث ما في يدي. والحمد لله رب العالمين».

حتى تاريخ كتابة هذه السطور، لم يفلح أحدٌ في تحديد سبب كراهية ذلك الولد لجميع أفراد العائلة دون استثناء، بل كراهيته لكل شيء بما في ذلك الحجر والشجر، وربما الهواء أيضاً.

هل قلنا: ولد .. حسناً؛ الرجولةُ أمرٌ نسبي، فقد كان المذكور قد تجاوز الثلاثين وما زال في داخله ولد يتصرف كالصبيان ويفكر مثلهم .. الفرق أنه كان، كما يقول الشوام، صبياً أزعر!

لا يعرف أحدٌ أيضاً، سببَ اختيار أبيه لاسمه هذا .. اسمه الغريب الذي هو بشكلٍ ما، برهانٌ على أن لكل مُسمّى من اسمه نصيب ... ثائر! .. اسمه ثائر، وكان فعلاً ثائراً على كل شيء، حاقداً على كل شيء، ولا يعجبه شيء. وبالمقابل لم يكن يحبه أحد، أو يثق به أحد ... أو يحترمه أحد.

وبما أن هكذا نوع من الناس يكون في العادة جباناً؛ يحسب كلَّ صَيحةٍ عليه .. فقد كان ثائر يصبُّ سمومَ حقدِه الأسود في صيغٍ متعددة من حيث اللغة، لكن المعنى واحد ... «تباً لهذا البيت» .. «خرابة» .. «لا نعلم متى سيسقط على رؤوسنا» ... وهو، إذ يتحدث عن البيت، إنما يعني البيت وأهله وكل ما فيه.

ثم إن أبا ثائر على ما يبدو، قد ندم على اختياره لهكذا اسم .. فسمّى ابنه الثاني اسماً معاكساً تماماً. وكأن الأب قد أُلهِمَ شيئاً سيكون له تأثير كبير بعد عددٍ من السنوات .. فسمّى ابنه الثاني: راضي. ومن عجبٍ أن هذا الابن الثاني قد نال من اسمه نصيباً كبيراً فعلاً.

ثائرٌ إذن .. لا أحد يعرف، أو حتى يفهم، سببَ الحقد الذي يعتمل في داخله حتى يكاد يقتله ... ثم

راضي الذي كان راضياً مَرْضِيّاً يحب الجميع ويحبه الجميع ... يا لحكمة المولى تبارك وتعالى؛ كيف يضع أمام أعيننا البياضَ أمام السواد، كي لانتشاءم.

وأما بيت العائلة الذي كان ثائر يمقته، فقد كان تحفةً من تحف الزمان بكل ما يمكن أن تحمله هذه العبارة من معنى ... كان بيتاً دمشقياً بُنِيَ أيامَ الزمن الجميل .. زمن المودّة والمحبة والتآلف، وظلَّ أهله محافظين على ذلك كله ... المودّةُ أثمرت، وما تزال .. والمحبة أينعت؛ وتزداد خضرتها جمالاً يوماً بعد يوم ... والتآلف نما كعريشةٍ لطيفة؛ مدَّ الجيرانُ نحوها خيوطاً نُسِجَت مِن حُبٍّ .. كي تدخل بيوتهم ويرحبوا بها .. وكأنها طفلةٌ صغيرةٌ حلوة تدخل إلى أي بيت، فيفرح الناس بقدومها.

تُرى هل يكره أحدٌ بحرةَ ماء؟! .. هل يمكن أن يكره إنسانٌ أن يكون (سِيرانَهُ) ونزهته ضمن بيته

... حسناً، لم يكن ثائر يكره البحرة وحسب، بل إنه اعتاد في طفولته أن يبصق في مائها ويرمي فيه القاذورات. حتى صنابير الماء النحاسية ذات الشكل الرائع، والمثبتة على السور الحجري الصغير للبحرة .. ظلَّ لسنوات يخربها الواحد تلو الآخر، حتى أتلفها كلها، واضطر أبوه أن يحتفظ بها في غرفة الـ (كراكيب). والعجيب في الأمر كله، أن كل تلك التخريبات، ومثلها كثير، لم يقم بها ثائر وهو مراهق مثلاً .. بل فعلها وهو ما يزال طفلاً في العاشرة .. وكأن جذور الحقد تبدأ في التمدد باكراً جداً.

في الخامسة عشرة من عمره، اعتبر ثائر ما فعله نصراً كبيراً .. إنه السقف ... سقف صالةٍ كبيرة في بيت العائلة، كان أناسٌ من دائرة الآثار قد جاؤوا ليصوروه ويوثقوا تفصيلاته الفنية التي يعود تاريخها إلى أكثر من مائة سنة. ثم إنهم جعلوا أبا ثائر يوقّع

تعهداً بالحفاظ عليه من أي ضررٍ متعمّد .... ثائر بالطبع كان حاضراً؛ يسمع ما قيل ويشاهد ما تمَّ، وأسنانه تضغط بعضها بعضاً كأنها تمضغ ما لا يمكن مضغه. ثم إنه يئس فابتلع حقده وقد بيَّتَ نيةً هي السوءُ بِعَينه.

وما لا يعرفه أحدٌ .. إلا ثائر نفسه .. هو أن تغذية الحقد الذي في داخل ذلك الـ ... لم تكن ذاتيةً وحسب، بل كان لها مصدرٌ خارجي يمدُّها كلما نقصت .. يضرمها كلما خَبَت .. ويقدّم لها دعماً لوجيستياً لا يقتصر على الأفكار والإدارة فقط .. بل المواد والمستلزمات أيضاً ... سائلٌ ما .. مركب كيميائي، أُعطِيَ لثائر وتمَّ إفهامه طريقة الاستعمال.

وفي يوم التنفيذ، جاءت أم فهد .. المرأة الطيبة التي لم يعد أحدٌ في العائلة، منذ زمن بعيد، يعتبرها خادمة، بل كان الكل يعاملونها على أنها واحدةً منهم

... جاءت كعادتها في كل يوم خميس، كي تقوم بعملها .. استغلَّ ثائر ما يعرفه عنها من ضعف سَمْعِها .. قال إن جدته تنادي عليها .. ولمّا انطلت الحيلة، سكب الحاقدُ السائلَ التخريبي في وعاء الماء الذي كانت أم فهد قد ملأته كي تنظّف السقف .... كانت الأيام أواخر الشتاء، والتنظيف هذه المرة سيطال السقوف والجدران ... قامت أم فهد بعملها وذهبت .. وفي اليوم التالي وقعت الواقعة.

دخل أبو ثائر إلى الصالة لسببٍ ما .. رفع رأسه كي يتأمّل السقف كما هي عادته .. فما وجد شيئاً .. كانت المادة الكيميائية قد أزالت الرسوم التزيينية التي عمرها أكثر من مئة سنة .. النتيجةُ جلطةٌ دموية أُدخِلَ أبو ثائر بسببها إلى المشفى، وصار منذ ذلك الوقت مريضَ قلبٍ يتعاطى علاجاً محافظاً ... وطُرِدَتْ أم فهد مظلومةً مكسورةَ الخاطر؛ لا تدري ما الخبر.

أعمال ثائر التخريبية عديدةٌ جداً، يكاد هو نفسه لا يتذكرها كلها .. منها ما نجح .. ومنها ما اكتُشِفَ فتمَّ تداركه قبل فوات الأوان ... لكنها كانت مستمرةً لا تتوقف. وكأن المخرّب لا يهنأ له عيشٌ إلا إذا رأى ذلك البيت، ذلك التاريخ .. وقد تهاوى فصار أثراً بعد عين.

لماذا .. هذا سؤالٌ كبير؛ ربما يصعب على ثائر ذاته أن يجيب عنه إجابةً شافية ... لعلَّ الحقود كالكذّاب؛ ينسى كثيراً. لكنَّ في ذكريات طفولة ثائر، أشياء من الصعب عليه أن ينساها ... تلك (الجَمْعات) الحلوة .. في المناسبات مثلاً، أو في أول يومِ اثنين من كل شهر؛ حيث تجتمع العائلة بكل أفرادها ... الجدُّ والجدَّةُ لا تسعهما الفرحةُ إذ يشاهدان حولهما أبناءهما وبناتهما وأحفادهما، بل وأبناء أحفادهما من الجيل الثالث ... الكل يرحّب بالكل، يطمئنّون على

بعضهم البعض ... الحكايا الجميلة .. والمائدة التي لا يمكن، بسبب كثرة العدد، أن تتسع للجميع، فيجلس البعض على طرف البحرة .. وتَعُمُّ الابتسامات، ويَبسُطُ الودُّ جناحَيه على المتحابّين.

وعلى العكس مما هو متوقَّع، كان ذلك الجوُّ الذي عاش فيه ثائر سنواتٍ طويلةً من عمره ... كان يجعل الحقدَ الذي في داخله يكبُر .. ينمو كالسرطان .. يتمدد في أرجاء عالمه الداخلي المليء بالأوساخ .. فيرتعُ ويتغذّى كخنزيرٍ لا يشعر بالسعادة إلا بين القاذورات.

يحقُّ لنا أن نتساءل طبعاً .. مَن الذي زرعَ أولَ فيروسٍ للكراهية في عالَمِ ثائر الداخليّ ... أكيدٌ أنه ليس واحداً من أفراد العائلة .. فالمحبةُ شجرةٌ طيبة لا تُثمِرُ إلا طَيِّباً ... حتماً هنالك مصدرٌ خارجي؛ لا يعرفه أحدٌ إلا ثائر. وأكيدٌ أن مَصْدَرَ الفيروساتِ

ومُصَدِّرَها، هو من الخبث والدهاء بحيث استطاع إقناعَ ثائر بالحفاظ على السر .. بإبقاءِ نَتَنِ علاقتهما مدفوناً تحت أكوام النفايات.

ما هو المكسب .. بماذا وُعِدَ ثائر .. لا أحد يعرف ... لكن جريمةَ قتلٍ تمَّ ارتكابُها في بيت العائلة .. نعم، جريمة قتل .... يمكن من خلال تحليلها، أن يُفهَمَ الكثير.

عندما كان المُعَزُّون يدخلون إلى (التِمْساية) للقيام بواجب العزاء .. كان الوحيدُ من بين المستقبلين، الذي يعرف أن أبا ثائر لم يَمُت ميتةً طبيعية، بل مات مقتولاً ... كان الوحيد الذي يعرف حقيقة الأمر، إنما هو القاتل .. ثائر ذاته.

صندوقُ العائلة ... ذلك التقليد المعروف بين العائلات العريقة في الشام .. تلك المفخرةُ التي كان أبو ثائر يتولّى إدارتها، كما تولاها قبله أبوه وجده ...

مبلغٌ شهريٌّ صغير؛ يلتزم بدفعه كلُّ قادرٍ من أفراد العائلة، ويودَعُ في الصندوق للطوارئ ... عملية جراحية لمريضٍ فقير .. مستلزمات دفنِ ميتٍ وتكاليف عزاء .. مساعدة للجيران .. أو عندما تحصل البركة في الأموال، ولا يكون هنالك طوارئ، يمكن إعطاؤها لِمُحتاج .. أو لمساعدة مُقبِلٍ على الزواج، وهكذا ... وهذا كله طبعاً، غير الزكاة المفروضة ... ذاك الصندوق كان سبباً في مقتل أبي ثائر.

ومرةً أخرى .. تمَّ إفهامُ ثائر طريقة فتحِ القفل ... وتمَّ إعطاؤه التوجيهات بأن لا يأخذ أي قرشٍ من المبلغ .. لا تَعَفُّفاً، بل كسراً لِخاطر أبي ثائر.

في الليل، قام ثائر بفتح الصندوق خلسةً .. وضعَ النقودَ في وعاءٍ للطبخ .. صبَّ عليها شيئاً من زيت الكاز مع الكثير من حقده الذي كان مشتعلاً دائماً،

ثم أشعل النار ... في الصباح، لم يتحمّل أبو ثائر ما رآه، فمات كمداً ... الجلطةُ هذه المرة، لم تمضِ على خير.

عرف الجميعُ طبعاً أن دودَ الخلِّ منه وفيه .. ولكن على أيّ أساسٍ سيكون توجيه إصبع الاتهام؟! .. المالُ لم يؤخَذ، بل أُحرِق .. وبابُ البيتِ لم يُكسَر أو يُخلَع ..... كل ما هنالك أن طاقيّة راضي، كانت مرميةً في الغرفة التي فيها الصندوق ... هكذا .. لعلَّ جناحَين قد نَبَتا لها، ثم طارت حتى حَطَّت هناك ... كان الخلاف بين ثائر وأخيه راضي قد بدأ يأخذ شكلاً أكثر عنفاً.

عدمُ أخذِ المالِ، وإحراقه بدلاً من ذلك .. هذا ما يوضح الصورةَ أكثر. فالضرر الذي كان ثائر، أو بالأحرى مَن هُم وراءه، يريدون أن يُوقِعُوهُ بالعائلة وببيت العائلة وبتاريخها .. لم يكن ضرراً بسيطاً ذا

تأثيرٍ قصيرِ المدى .. بل كان استراتيجياً؛ يطالُ الثقةَ والمبادئ، ويخلخل البنيان ويقلقل القلوب.

وما إن انتهى العزاءُ .. حتى كشفَ ثائر عن وجهه الحقيقي، وجاهرَ بعدائه ... «أريدُ حصتي من إرث أبي .. أريدُها الآن».

و«أريدُها الآن» هذه ... هي أُولى الرصاصات التي بدأ ثائر بإطلاقها على قلب أمه .. فأمُّ ثائر ما تزال على قيد الحياة .. وتوزيعُ الإرثِ يعني البيع .. ويعني، فيما يعني، أنْ تنتقل الأم المسكينة من بحبوحة البيت الواسع الجميل الذي أمضت فيه معظم حياتها، إلى علبةٍ من علب الكبريت الصغيرة ... ولعلَّهُ يعني، فيما يعني أيضاً، أن تعيش الأم لوحدها أو مع راضي.

الأمُّ دائماً خطٌّ أحمر، فلم يسكت راضي، بل عارضَ بكل ما أُوتِيَ مِن حكمةٍ وأدب، وبُعْدِ نظرٍ، وصبرٍ جميل ... عارضَ محاولاتِ أخيه الذي كان وما

يزال ثائراً حتى على خاطر أمه الطيبة، والذي لم يكن لدى الولد العاقّ أي مانع، لا مِن كسره وحسب، بل مِن تكسيره تكسيراً.

الموّال نفسه، غَنَّاهُ ثائر كلَّ يوم .. بصوتٍ نشاز؛ بالزعيق والصراخ .. وبصفقِ الأبواب، وتكسير الأثاث .... والرضيُّ المَرْضِيُّ يضبطُ أعصابَهُ .. والأم المسكينةُ تبكي ... وهكذا إلى أنْ جفّت مآقيها .. وماتت، وقلبُها على ثائرٍ غاضبٌ .. غيرُ راضٍ ولا مُسامح.

كان راضي على علمٍ بالمدى الذي وصل إليه سوادُ قلبِ أخيه ... لم يكن مضطراً لاستنتاج شيءٍ أو استنباطِه .. فقد كان في تاريخ العلاقة بين الأخوين، مرحلةٌ قديمةٌ مضت وانتهت، لكن راضي ما زال يتذكّرها بكل تفصيلاتها ... أيامَ حاولَ ثائر ضمَّ أخيه إلى جانبه ... بتعبيرٍ أكثر دقةً؛ عندما حاولَ ثائر

(تجنيد) أخيه .. فرفضَ هذا الأخيرُ رفضاً باتّاً تامّاً وقاطعاً.

صرامةُ راضي في الرفض، كانت المؤشِّرَ الذي فهمَ منه ثائر، ومَن هُم وراءه، أن هذا الشاب لا يمكن أن يكون حليفاً لهم، فأعلنوا عداوتهم.

وبعد أن ذهب كُلُّ الكبار .. وتركت البناتُ أمورَ الأخذ والرد لأخَوَيهنَّ ... حاولَ راضي محاولته الأخيرة للحفاظ على البيت التاريخ .. على العراقة .. على كلِّ شيءٍ كما كان ... لكن المحاولةَ التي توقَّعَ راضي مسبقاً أنها ستفشل، فشلت فعلاً .. وأرادها راضي أن تبقى للتاريخ فقط، ولإثباتِ ما كان يعلمه الجميعُ مِن خِسَّةِ ثائر وسوءِ معدنه.

«لماذا لا نرمم البيتَ يا أخي، ونُبقي عليه كما هو؟!» .... باقي جُمَلِ هذه المحادثة التي تلت هذا الاقتراح، كانت نموذجاً لحوار الطرشان ... ففي الوقت

الذي كان فيه راضي يتحدث عن تاريخٍ يجب الحفاظ عليه، كانت إجابات ثائر كلها ودون استثناء، تتعلق بالمال .. بالنقود ... أو بالأحرى، كان كلامه يدور حول محورٍ واحد .. مَحْو كلِّ شيء؛ بحيث لا يبقى ما يمكن تسميته: روح المكان ..... حتى الاقتراح الثاني بتحويل البيت إلى مزارٍ سياحي؛ يُدِرُّ دخلاً على الورثة، رفضه ثائر رفضاً قاطعاً ... البيع، ولا شيء سوى البيع، ثم ليَأخُذْ كلٌّ حصته ويفعل بها ما يريد.

أخوات ثائر وراضي، لم يفهمن المعاني الحقيقة التي كانت تتخفّى وراء كلام أخوَيهم ... لم يتوقّعن أن كلاً منهما كان يعرف تماماً، أنْ لا أحدَ سيشتري منزلاً تصنّفه المحافظة تحت بند: شريحة أثرية .. فأيّ تعديلٍ، أو ترميم، ينوي المشتري أن يقوم به ضمن البيت، سيحتاج إلى موافقات ورُخَص، وإلى سلسلة طويلة من المعاملات الإدارية .. حتى لو اقتصر الأمر

على فتحِ بابٍ داخليٍّ بين غرفتين. بمعنى أنه لن يُقبِلَ على شراءِ بيتٍ كهذا، إلا واحدٌ من أولئك الناس ذوي العلاقات .. واحدٌ ممن يدفعون الأموال الطائلة لتحويل منزلٍ قديمٍ إلى مطعمٍ على الطراز الشامي القديم ... وهؤلاء باتوا قِلّة. والمطاعم التي على هذه الشاكلة صارت كثيرةً جداً. إذن فمَن يمكن أن يشتريه؟ ... كلٌّ مِن ثائر وراضي، كان يعرف الجواب.

«آيلٌ للسقوط» .. تلك هي الجملة المفتاحية. وهذا ما يفعله عادةً بعضُ مقاولي البناء ومستثمريه؛ عندما يشتري أحدهم منزلاً كهذا بثمنٍ بخس لا يساوي، مهما بدا في أعين الورثة كبيراً، ولا عشرة بالمائة من الأرباح الهائلة التي سيحصل عليها.

فالمحادثةُ إذن كانت مماطلةً لكسب الوقت ... ثائر كان ينتظر أن تأتي الفيروسات التي وراءه .. التي علّمته الحقدَ ودرّبته عليه .. كي يشتري واحدٌ منها

المنزلَ، ثم يبدأ في تخريبه تخريباً مدروساً .. إلى أن تتهاوى أجزاءٌ منه .. فيمكن بالتالي أن يتقدّم للمحافظة بطلبٍ يذكر فيه أن البيت على وشك السقوط .. وأن السكنى فيه لم تعد ممكنة، فيحصل من حيث النتيجة على قرارٍ بالهدم .. ثم على رخصة بناء .. كي يبني مكانه عمارةً شاهقة يربح منا الملايين، بل المليارات.

راضي من طرفه .. كان يماطل هو الآخر، لكن لهدفٍ مختلف ... كان قد وضعَ خطةَ الدفاعِ منذ زمنٍ ليس بالقصير، وبدأ في تنفيذها فعلاً ..... العنوان العام للخطة، لم يكن ليثير انتباهَ أحد، أو يعطي أيَّ إشارةٍ إلى ما كان راضي ينوي فعله ... كان العنوان العام للخطة: الخرابة.

إنها أرضٌ لا بناءَ عليها؛ تُحاذي منزلَ العائلةِ تماماً ... وهي، حسب السجلات العقارية، غير تابعة

للمنزل الأساسي، على الرغم من أنها تحمل رقماً متسلسلاً هو التالي مباشرةً بعد رقم بيت العائلة .. بمعنى: ورقة «طابو» منفصلة ... والمُلكية للورثة أيضاً.

كان راضي يريد أن يقنع أخاه أن يأخذ هذا الأخير المنزلَ القديم، مقابل أن يتخصص راضي وأخواته البنات بتلك الأرض التي كانت بسبب طول الإهمال، خرابةً فعلاً.

إقناعُ ثائر بمثل هذا العرض الذي يبدو مجحفاً بحق راضي وأخواته، لم يكن مسألةً صعبة تحتاج إلى وقتٍ طويل ... كان راضي في الحقيقة هو الذي يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، ولهذا كان يماطل.

وبما أن ثائر أيضاً، كان لديه ما يفعله ... فقد كانت القضيةُ شبيهةً بصراع الأدمغة .. بالتطاحُن الصامت بين الذكاء الطيّب، الذي هو في حقيقته

عقلانيةٌ استراتيجية .. وبين الذكاء الشرير، الذي ما هو، في الحقيقة، إلا غباء.

وبما أن الأخوات يُقِمْنَ في بيوت أزواجهن .. لم يكن يتردد على البيت إلا ثائر وراضي .. ثائر يأتي في الأوقات التي يعرف أن راضي لا يأتي فيها .. وراضي يفعل العكس ... كان لدى كلٍّ منهما مهمة.

ثائر .. وبناءً على توجيهات أساتذته في التخريب، كان يأتي كي يخرّب، كي يُضعضع، كي يمهّد لجعل البيت آيلاً للسقوط فعلاً .. فيأتي أحدُ معلّميه ليشتري البيتَ فلا يدفع فيه إلا القليل ... ولعلهم وعدوا تلميذهم بأنهم سيعوضوه عن خسارته ..... وراضي كان يأتي لسببٍ معاكسٍ تماماً، لكن بحرفيةٍ أكبر وأعمق.

راضي الذي تحبه أخواته ويثقن به .. كان يأتي إلى البيت ومعه صديقان؛ كلٌّ منهما متخصصٌ تخصصاً

جامعياً عالياً وعلى أرفع مستوى .. الأولُ مهندس مِعمَار، والثاني مهندس حاسوب ... وما كان مع المجموعة كلها إلا كاميرا حديثة، وحواسيب محمولة.

كانت المجموعةُ الطيبة تُوَثِّقُ كلَّ شيء .. كلَّ زاويةٍ في البيت، وكلَّ ركن ... إلى حدٍّ أنهم قاموا بتوثيق تفصيلات التفصيلات، وحفظوا كلَّ ذلك على حواسيبهم، وعلى أجهزةِ هواتفهم المحمولة، بل وعلى وسائط تخزين منفصلة External Hard Disk من باب الاحتياط.

الأكثر طرافةً في الموضوع، أن كلاً من الأخوين كان منتبهاً لِمَا يفعله الآخر. راضي يلحظ تخريباً أو اثنين كلما أتى إلى البيت، وثائر الذي زرع كاميرات المراقبة في كل أرجاء البيت، يشاهد في التسجيلات أخيه راضي وصديقيه؛ يصوّرون ويوثّقون. وبما أنهم تقنيون، فقد حرصوا على العمل بصمت أثناء

تواجدهم في المنزل؛ فكانوا لا يتكلمون إلا بما اتفقوا عليه مسبقاً .. «التاريخ .. الذكريات .. وحتى لا ننسى» .. إلخ. وعُمِّيَت الخطةُ الحقيقية على ثائر الذي اعتبر ما يفعلونه نوعاً من السذاجة، فتركهم وشأنهم.

لكن تفصيلاً صغيراً لم ينتبه إليه ثائر .. هو أن راضي عقدَ مع تجّار نوعٍ خاص من البضائع، اتفاقاً غريباً .. اتفاقاً مستقبلياً ... عَرَضَ عليهم عرضاً مغرياً، فوافقوا مسرورين .. وبقي الأمرُ سراً.

وعندما صار البيتُ آيلاً للسقوط فعلاً .. وانتهى راضي وصديقاه من عملهم .. عُقِدَت جلسةٌ عند محامي العائلة؛ تمَّ بموجبها تخصُّصُ ثائر ببيت العائلة القديم، مقابل تخصُّصِ راضي وأخواته بالأرض الخَرِبة.

استغرب المحامي، ونصح راضي على انفراد، فلم يحصل على نتيجة ... ثائر من طرفه، أرسل رسالةً

نصيّة خلال الجلسة، إلى مَن هُم وراءه، فجاءه الجوابُ: «وافِقْ؛ إنهم أغبياء» ... وأما الأموال السائلة التي في المصرف وباقي الإرث، فتمَّ احتسابه حسب الشرع .. وقُضِيَ الأمر.

قُضيَ الأمرُ من وجهة نظر ثائر فقط .. فثمن البيت صار كله له، ومعلّموه جاهزون للدفع ثم للهدم ... وأما راضي فقد كانت خطته قد وصلت إلى حدّ الانتهاء من التهيئة، والبدء بالتنفيذ.

ثمانية عشر شهراً، تلك كانت مدة التنفيذ ... خلالها، فَهِمَ الجيرانُ نصف القصة، وظلَّ النصفُ الثاني خافياً تماماً.

النصف الأول تلخَّصَ في استصدار مشتري البيت القديم رخصةً بالهدم، ثم استصدار أخرى بالبناء ... ثم المباشرة بالتنفيذ فوراً .. كانت أصوات الـ (مهدَّات) قد بدأت تُسمَع في الحارة.

على الطرف الآخر ... استصدر راضي رخصةَ بناءٍ؛ عَجِبَ لأمرها المهندسون في المحافظة .. لكنهم، وبسبب أصالة الفكرة، وافقوا عليها عن طيبِ خاطر ... بل إنهم خاطبوا الوزارات المختصة، فحصلوا على توجيهاتٍ بتوفير كل الدعم والمشورة اللازمَين، فضلاً عن التسهيلات.

تضمّنت رخصة البناء موافقةً على بناء جدارٍ مبدئيّ؛ قابلٍ للإزالة بعد زوال الحاجة لوجوده .. جدارٍ يحيط بالأرض الخربة كلها؛ بحيث تتمُّ أعمالُ البناء ضمن محيط الجدار دون أن يرى أحدٌ من الفضوليين ما الذي يجري في الداخل، باستثناء مهندسي الرقابة طبعاً ... وبعد الانتهاء تماماً من الإكساء والتشطيبات، يُزالُ الجدارُ، فيظهر البناء الجديد ... الدرُّ المَصونُ يغارُ عليه صاحبه؛ يُبقيه في منأى عن العيون، ولا يُظهره إلا بحساب.

ولأول مرةٍ في حياته، كاد الفضولُ في داخل ثائر أن يقتله ... كان يأتي كل يوم إلى الموقع؛ يطمئنُّ على أعمال هدم البيت القديم .. يراقب كيف يشتري تجّارُ الأنقاضِ الأحجار القديمة والأبواب والأثاث القديم، بأبخس الأسعار ... وعينه على الجدار المحيط بالأرض الخربة المجاورة .. يسمع أصوات عمّال البناء، ويودُّ لو أنه له جناحَي طائرٍ تمكّنانه من التحليق عالياً كي يرى ما الذي يبنيه أخوه المعقّدُ الأبله ... حتى أنه ذهبَ مرةً إلى المحافظة، وحاولَ أن يفهم شيئاً من تفصيلات رخصة البناء .. فلم يُفهِمْهُ المسؤولون شيئاً ... ومرةً أخرى لعبتْ أصالةُ الفكرةِ دورَها في جعلِ المهندسين يعتبرونها مشروعَهُم هُم .. بل مشروعَ المدينة كلها.

وبعد انتهاء مدة الثمانية عشرة شهراً، رنَّ جوَّالُ ثائر ... إنه راضي .. جاهدَ ثائر نفسه بشدةٍ كي لا يرد ..

صبر قليلاً .. توقفَ الرنين. وبعد دقائق جاءته الرسالة التالية: «أخي ثائر، تحياتي .. أنت مَدْعُوٌّ لحفلِ افتتاح بيت العائلة من جديد .. غداً في الساعة الرابعة عصراً .. العنوان تعرفه جيداً».

لم يَنَمْ ثائر طوال الليل. لم يكن القلقُ وحده قد منعَ عينيه أن تغمضا، بل أصواتُ هدمِ الجدار العالي المحيط بأرض المشروع. كان يطلُّ من نافذة علبة الكبريت التي أعطاها له معلّموه .. شقة صغيرة، يكاد يستطيع أن يتحرك فيها، ولا شرفةَ لها .. تلك كانت جائزة الترضية التي قبضها، فضلاً عن الثمن البخس الذي أخذه لِقاءَ بيع البيت القديم ... ظلَّ واقفاً يتأمّل، وقلبه يكاد يقفز من حلقه؛ كلما بانَ جانبٌ من جوانب البناء الجديد ... وكأنَّ المهندسَ الذي صمَّمَ البناء الجديد، قد أمضى كل حياته في بيت العائلة القديم ... التطابق كان لا يُصدَّق.

في اليوم التالي، تعمَّدَ ثائر أن يتأخر نحواً من نصف ساعة، كي لا يظهر بمظهر المتشوّق .. ثم ندم على ذلك .. فما إنْ غادر بابَ العمارةِ الجديدة التي يسكن في الـ (نصّاصي) منها، حتى صَكَّتْ سَمْعَهُ أصواتُ زغاريد .. تماهَتْ معها أصواتُ رجالِ العراضة الشاميّة؛ يبدؤون أهازيجهم، كما هي العادة، بالصلاة على النبيّ المُختار عليه أتمُّ الصلاةِ والسلام ... كانت الحارةُ تعيش عرساً حقيقياً.

البابُ مفتوحٌ على مصراعَيه .. وكأنه بابُ دمشقَ الأبيّة إذ تفتح ذراعيها لكل الطيّبين ... والزينةُ ترقص في الحارة رقصَ السماح .. والضيافةُ لكل الناس .. والفرحُ يُعِيدُ تَعَلُّمَ أبجديتهِ من الشامِ إذ تفرح؛ يُعيد قراءةَ نفسِه.

في الداخل .. لم يكشِّر أحدٌ في وجه ثائر .. استقبله الجميعُ بالترحيب والإكرام ... لكنه كان

مذهولاً .. الأحجارُ في مكانها تماماً؛ كما لو أن المهندسين رقّموها واحداً تلو الآخر .. والبحرةُ نفسها كما هي؛ يتراقص ماؤها الرقراق، والصنابيرُ النحاسية تزيدُها إكراماً بسخاء .. الصنابير نفسها ... وضفائرُ الصبيّات الحلوات ـ الزريعة ـ منسدلةٌ على جوانب الجدران في دلال، وكأن النباتات التي أتوا بها لا تشيخُ ولا تموت.

في الصالة ذات السقف الأثري ... أحسَّ ثائر بألمٍ في يده اليسرى؛ امتدَّ قليلاً نحو صدره ... لم تكن المشكلة فقط أن السقف قد عاد إلى ما هو عليه تماماً ... فقد نجح المهندسون، ومن خلال صورةٍ قديمةٍ واحدة للسقف القديم، في إعادة تصميم النقوش والزخرفات، ثم في تنفيذها كما كانت تماماً ... المشكلة أن أم فهد .. تلك المرأة الطيبة .. كانت جالسةً في صدر الصالة .. وأخواتُ راضي يُكرمنها

وكأنها أمهنّ .... سلّمت عليه أم فهد وسألت عن أحواله .. فازداد الألمُ في صدره.

لم يتركه راضي في هذا الموقف المحرج كثيراً، فقد استغرب الجميعُ صمتَهُ وعدمَ ردِّهِ على أم فهد بأي كلمة ... تدارك راضي الأمرَ، ودعاهُ إلى مشاهدة بقية أقسام البيت .. الليوان .. النِّصّية .. المربّع .. وحتى الفرنكة ... ومضى يرافقه من مكانٍ إلى آخر، وثائر صامتٌ صمتَ ما قبلَ الموت ... باختصار، كان البيت الجديد نسخةً طبق الأصل عن البيت القديم.

وعندما وصل الأَخوان إلى الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني .. أخذ راضي بيده بلطف؛ مشيراً إلى باب المصعد الكهربائي.

- مصعد .. ! (تساءل ثائر)

وانطلق لسانُ راضي مجيباً على الكلمة الوحيدة التي نطق بها ثائر خلال زيارته كلها ... شرحَ له أن

طراز البيت فقط، إنما هو محاكاةٌ معمارية دقيقة للبيت القديم ... ولكنه مجهّز بكل ما هو حديث.

وكان آخرُ ما قاله راضي:

ـ ما تراه من أحجار البناء وأقواس الأبواب ومن الأثاث القديم .. كله تمَّ شراؤه من أبو كاسم؛ تاجر الأنقاض والـ (أنتيكا) .. تعرفه جيداً؛ هو الذي اشتراها كلها من صديقك ... وهي مرصوفةٌ في مكانها تماماً .. ولكن الحجر الأبلق الذي تراه، هو في هذا البيت قشرةٌ فقط .. لأن الجدران التي وراءه مبنيّةٌ بالإسمنت المسلّح، وكذلك البيت كله ... وأما الأساسات فمتينة .. متينةٌ جداً.

نار الحجاز

كانت أُمسيةً عاديّة من أمسيات أواخر شهر أيار .. اصطفَّ الناسُ لأداء صلاة العشاء؛ استجابوا لنداء الإمام الذي ذكّرهم بضرورة الاستواء، وبِألّا يكون الصفُّ أعوج ... وأما الجملةُ الأخيرة التي سبقت تكبيرةَ الإحرام، فقد كانت الأكثر أهميةً: «انظروا بين يدَي مَن تقفون» ... وبدأت الصلاة.

مرةً سُئلَ أستاذٌ جامعيٌّ أمريكي اعتنقَ الإسلامَ، بعد أنْ قضى معظم حياته ملحداً: «نراكَ تقف في الصلاة وراء الإمام، ونلاحظ على تعبيرات وجهك خشوعاً واستكانة، على الرغم من أنك لا تعرف من اللغة العربية إلا بضع كلمات. فكيف تشعر بالخشوع وأنت لا تفهم ما يتلو الإمام؟» ... كانت الإجابةُ عجيبةً للغاية، لا سيما أن قائلَها بروفيسور في الرياضيات وليس شاعراً أو فيلسوفاً. أجاب ذلك الأستاذ بقوله:

«أرايتم إلى الطفل الرضيع إذ تهدهده أمُّهُ على صدرها؛ كيف يستكينُ إلى حنان صوتها ودفء محبتها .. هل يفهم من كلامها شيئاً ؟! ... هكذا حالي في الصلاة».

ذلك الحنانُ الإلهيُّ كان يفيضُ على المصلّين في تلك الليلة، كما في كل ليلة، بل كما في كل وقت.

وأما الفروقات الفرديّة بين مُصَلٍّ وآخر، فَمَنْبَعُها نَفْسُ المصلّي التي بين جَنبَيه .. نَفْسُهُ التي قال عنها عالمٌ مسلمٌ قُتِلَ بتفجيرٍ إرهابيٍّ وهو جالسٌ في أحد مساجد دمشق؛ يذكّر الناسَ بِحَنانِ رَبِّهِمُ الحنَّانِ الكريم: «إنها أعدى عدوّ لنا على الإطلاق».

بالمناسبة، فذلك الشيخ نفسه، قال يوماً عن البروفيسور الذي يخشع في صلاته على الرغم من جهله باللغة العربية: «أنا أقرأ لهذا الشخص الذي لم يَمْضِ على إسلامه إلا بضع سنوات. وأخجلُ من نفسي ... فاقرؤوا وانظروا كم نخجل من أنفسنا» ... كان

الشيخ قد قرأ، وهو على متن طائرة، مسودّةَ الترجمةِ العربية لكتابٍ ألّفَهُ البروفيسور عن الإسلام.

وكلُّ مَن وقفَ لأداء صلاة العشاء في ذلك المساء من مساءات أواخر شهر أيار .. لم يسمعوا بخبر الشيخ ولا بقصة البروفيسور؛ لسببٍ بسيطٍ جداً ... فالبروفيسور تُرجِمَ كتابُهُ في عام 1997م، والشيخ قُتِلَ بعد حوالي خمسة عشر عاماً. وأما الذين كانوا يُصَلُّونَ العِشاء، فقد سبقوهما تاريخياً بزمنٍ بعيد ... تحديداً، كان ذلك المساء الذي تبيّن فيما بعدُ أنه لم يكن عادياً أبداً ... هو مساءُ يومِ الأحد السادس والعشرين من شهر أيار عام 1256م.

«اللهمّ إنّا نسألُكَ خيرَ هذه الليلةِ، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما بَعْدَها .. ونعوذ بِكَ مِن شَرّها، وشَرّ ما فيها .. وشَرّ ما بَعْدَها» ... تُرى كم واحداً ممن توجّهوا لِخالقِ السماوات والأرض بهذا الدعاء، في تلك الليلة، كان

يعي ما يقول؟ وكم واحداً منهم مارسَ التكرارَ الببغائيَّ ثم مضى إلى بيته لا يلوي على شيء؟

قد يبدو هذا التساؤلُ، في ظاهره، سوءَ أدبٍ مع الله، يستوجبُ الاستغفار؛ يستوجب طلبَ عفوِ الرحمنِ الرحيمِ الذي كان كلُّ المُصَلّين يومَها في ذِمَّتِهِ سبحانه إلى أنْ يُصبِحوا .. بَيْدَ أنَّ أحداثَ اليومِ التالي؛ الاثنين الواقع في 27 / 5 / 1256م ، والتي وَثَّقَتْها كتبُ التاريخِ المُعتَبرة، تجعلُ المرءَ يتأمّل في سِرِّ ذلك الدعاء العجيب .. دعاء التعوّذ الذي يكادُ يكون منهجاً للطمأنينة، بل إنه لكذلك؛ إذا ما أُعطِيَ الدعاءُ حَقَّهُ مِن صدقِ التوجُّهِ والخشوع.

بدأ الأمرُ بكل بساطة، بِصَوْتٍ يعرفه كلُّ الناس .. سَمِعَهُ كلُّ الناس؛ صوت الرعد ... الفرق أنه لم يكن في سماء المدينة يومئذٍ غيومٌ تدلُّ على قُرْبِ هطولِ المطر.

«سُبحانَ الذي يُسَبّحُ الرعدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ مِن خيفَتِه» ... بهذه الكلمات تمتمَ معظمُ سكّانِ المدينة، عندما سمعوا الصوتَ الشبيهَ بصوتِ الرعد الآتي من بعيد ... منهم مَن استبشر خيراً، ومنهم مَن دعا الله أن يكون الصوتُ مبشراً بِسُقيا خير. وأما العارفونَ منهم، والمعترفون بالفضل، فلم ينسوا أنْ يدعوا لِمَنْ علّمهم هذه الكلمات ... لم ينسوا أنْ يدعوا لذلك الرجل الطيّب الذي أَحَبَّهُم وأَحَبُّوه .. أنْ يجزيَهُ اللهُ خيرَ الجزاء، بل إنهم لم ينسوا أنْ يرسلوا إليه بسلامهم النابع مِن أعماقِ القلوب.

ولو أنّ مسلماً معاصراً في أقاصي الصين، مُكِبّاً على زراعة الأَرُزِّ في حقله الصغير .. أو مسلمةً من مسلمات أيامنا هذه، تمشي بصعوبةٍ في مكانٍ ما مِن أفريقيا؛ بحثاً عن الماء أو عن مكان توزيع المساعدات الغذائية، وقد ربطتْ طفلَها الرضيع النحيل بخرقةٍ

على صدرها ... أو شاباً جامعياً في شارعٍ من شوارعِ مدينةٍ أوربية، يحثُّ الخُطى بِنَشاطٍ نحو المسجد الملحق بالمركز الإسلامي، وهو ينظر في برنامج مواقيت الصلاة على جهازه اللوحي ... لو أنَّ أيَّ واحدٍ من أولئك سَمِعَ نفسَ الصوت، لَقالَ نفسَ الكلام، ثم دعا لذلك الرجل الطيّب .. ولم يَنْسَ أنْ يرسل إليه بسلامه ... قد تختلف الألسن، أو تتغيّر الصيغ والعبارات .. لكن المعنى واحد.

ليست المسألةُ مسألةَ كلماتٍ تُقالُ في مناسباتٍ معيّنة وحَسْب .. وليست القصةُ قصةَ رعدٍ يَتْبَعُهُ مطرٌ ينزلُ مثلُهُ منذ آلاف السنين ... فما هذه التفصيلاتُ التي قد تبدو لبعض الناس صغيرةً، إلا صوائتُ وصوامت تُشَكِّلُ في مجموعها، أبجديّةَ لغةٍ مُعْجِزَةِ الفصاحة، يَنْطِقُ بها الكونُ كله في توحيدٍ مستمرٍّ لا ينقطع.

تُرى هل يعرف ذلك المسلمُ الصيني الفقير، أو تلك المسلمةُ الأفريقية المسكينة، أو ذلك الشابُّ الأوربي الذي يتعلّم ويُبدِع دون أن يتركَ إسلامَهُ والتزامه ... هل يعلمون كم كان ذلك الرجل الطيّب، وما زال، يُحِبُّهُم؟! .. لا شكَ أنهم يعرفون. فذلك الصادقُ المَصدوق عَبَّرَ عن حُبِّهِ بطريقةٍ راقيةٍ للغاية؛ عندما قال أنه مشتاقٌ لأحبابه! ... مشتاقٌ لأُناسٍ صَدَّقوهُ دون أن يروه .. صَدَّقوا بما جاء به بعد أن ماتَ بمئات السنين، ثم بنوا حياتَهُم بِرُمَّتِها على أساسِ ذلك التصديق.

كذلك كانت حالُ أهلِ المدينة الطيّبة التي يجول صوتُ الرعدِ في أجواء سمائها في عام 1256م ... كيف لا، والصادقُ المَصدوق مدفونٌ في بقعةٍ من الأرضِ مباركةٍ طيّبة، لا تَبْعُدُ عن بيوتهم وأسواقهم .. إلا بضعة أمتار.

ذلك الرجل الطيّب كان قد جاء إلى مدينتهم التي طابَتْ بمجيئه، منذ 654 عاماً ... جاء هاجِراً بيتَهُ ومالَهُ وذكرياتِه، مُخاطِراً بحياته، مُلاحَقاً مِن قِبَلِ أُناسٍ رصدوا جائزةً ماليةً ضخمة لِمَن يأتي به حياً أو ميتاً ... هاجَرَ مُتْعَباً مِن شدّة ما لاقى، هو والقلّةُ القليلةُ مِن أتباعه المساكين، مِن جَفاءٍ واستهزاءٍ وقسوةِ معاملةٍ؛ حتى من الأقارب .. جاء إلى مدينتهم حامِلاً في جُعبةِ مسؤوليّته العُظمى خبرَ الحقيقةِ الأعظم: لا معبودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ الواحدُ الأحدُ الذي لا ضِدَّ لَهُ ولا نِدّ ... جاءَ الصادقُ كي ينقلَ إليهم الإجاباتِ الصحيحةَ عن الأسئلةِ الكُبرى ... مَن هُم؟ .. كيف وُجِدوا؟ .. ولماذا؟ .. وما هو مصيرهم؟ وما الذي ينبغي أن يفعلوه؟

كان ذلك الأمينُ واحداً من مجموعةِ رجالٍ سبقوهُ عبر التاريخ؛ قدّموا نفسَ الإجاباتِ وحَمَلوا نفسَ المهمّة .. لكنه كان خاتَمَهُم .. وسَيِّدَهُم.

وأرعدت السماءُ ثانيةً .. نَظَرَ أهلُ المدينةِ الطيّبة إلى أعلى؛ عسى أنْ يكون الغيمُ قد تجمّع، فما رأوا إلا زُرقةً صافيةً. وظنَّ بعضُهم أنه ستمطر في مكانٍ آخر بعيد، تناهى صوتُ الرعدِ إلى أسماعهم مِن جهته.

ولمّا تكرر الرعدُ للمرة الثالثة بصوتٍ أكثر شِدَّةً، ولا مطر .. تعاملَ أُناسٌ مع الموضوع وكأنّ شيئاً لم يكن ... كان بعضُ الصدأ مُحتاجاً إلى ما يَجْلُوه. في حين تملّكَ بعضَ الناسِ شعورٌ بالخوف، وتذكّروا أمراضَهُم .. داءَهُم الأكثر خطورةً؛ الذنوب ... فهرعوا إلى صيدلية الدواء الشافي وبدؤوا بالاستغفار.

كان المستغفرون ممن لم ينسوا أنَّ للحياةِ منظومةَ إنذارٍ مبكّر ... منظومةً إلهيَّةً لم ينسوها؛ لأنهم طالما مارسوا رياضةَ التذكيرِ الذاتيّ، فضلاً عن التذاكُرِ فيما بينهم ... ولأنهم لم يتركوا معاودةَ الرجوعِ، في كل صغيرةٍ وكبيرة، إلى سِجِلِّ حياةِ عميدِ الجامعةِ الكُبرى

.. إلى أقوالِ ذلك الرجل الطيّب الأمين الذي لا ينطقُ عن الهوى، وإلى أفعالِهِ، بل حتى إلى المواقف التي سَكَتَ حِيالَها ولم يَقُلْ شيئاً؛ فَأُقِرَّتْ بَنْداً من بنودِ المقبولات في كلِّ زمانٍ ومكان.

المكان: طِيْبَة .. المدينةُ التي نُوِّرَتْ بِمَجيء سيدِ الخَلْقِ إليها؛ خاتَمِ المُرسَلين محمد الذي يُصَلّي عليهِ اللهُ وملائكتُهُ وعِبادُهُ المؤمنون ... صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلّم ... الزمان: يوم الاثنين أولُ شهرِ جُمادى الآخرة في عام 654هـ ... الوقت: ضُحىً؛ وبعضُ الناسِ يلعبون.

تابعَ صوتُ الرعدِ خِطابَهُ المُزَلزِلَ لِقُلوبٍ تَفْقَهُ .. فاستجابَ أصحابُها، ومحاولتَهُ إزالةَ الوَقْرِ مِن آذانِ آخرين، دون فائدة ... ظَلَّ يُنْذِرُ ويُنْذِر طيلةَ يومَي الاثنين والثلاثاء، وهكذا إلى أنْ حان وقتُ المرحلة الثانية مِن المهمّة؛ وقت زيادةِ وتيرةِ الإنذار ... ففي ليلة الأربعاء التحقَ جنديٌّ ثانٍ مِن جنودِ الله إلى

المهمّة .. الأرضُ .. التي بدأت تَرْتَـجُّ تحت الأقدام، فَزالَ الوَقْرُ وانجلى الصدأُ، واستفاقَ الغافلون وزُلْزِلَت القلوبُ جميعاً.

ازدادت وتيرةُ هزَّاتِ الأرضِ المُصاحِبَةِ للصوت الشديد، يومَي الأربعاء والخميس ... قِيلَ أنها رُجَّتْ عشرَ مراتٍ في اليوم والليلة، وقِيلَ اثنا عشر .. وزادَ آخرون ... لكن الأكيد، أنَّ الذي ازداد فعلاً، وبشكلٍ كبير، إنما هو وتيرةُ عملِ مجموعةٍ أخرى مِن عِبَادِ الواحدِ الأحد .. إنهم الملائكةُ الكِرام كَتَبَةُ الأعمال؛ فقد تزايدَ عددُ التائبين المُقْلِعين عن المعاصي والآثام ... ضَجَّت السماءُ بأصواتِ كِرامٍ بَرَرَةٍ يُنادون: هنِّئوا فُلاناً فقد اصطلحَ مع الله .. هنِّئوا فُلاناً فقد اصطلحَ مع الله ... وأصواتِ كِرامٍ آخرين يسألونَ الرحمنَ الرحيمَ أنْ يغفرَ لِعبادِهِ مِن بني آدم ... وكان صنفٌ ثالثٌ منهم ـ عليهم السلام أجمعين ـ يَحوطون بِحامِلِ

الأمانةِ؛ يحوطون بالإنسان من بين يديه ومِن خلفه، يحفظونَهُ مِن أمرِ الله.

أقلعَ الناسُ عن معاصيهم وتابوا. وأعتقَ أميرُ المدينةِ مماليكَهُ جميعاً، ورَدَّ مظالمَ كثيرة ... واجتمعَ الناسُ، والتجؤوا إلى مسجدِ شفيعِهم رسولِ الله ﷺ ؛ يريدون أن يبيتوا ليلتَهُم إلى جانب قبره الشريف مُستَغفرينَ اللهَ تعالى تائبينَ إليه سبحانه ... والمدينةُ قد تاب جميعُ أهلِها، وما بَقِيَ يُسمَعُ فيها رَبابٌ ولا دُفّ.

ولَمّا أُولِجَ ليلُ الجمعةِ في نهار الخميس، والناسُ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، بين مُستغفرٍ بَـاكٍ ومُتضرِّعٍ خائف ... زُلزِلَت الأرضُ زلزلةً اضطربَ لها المنبرُ .. سُمِعَ صوتٌ خَفِيٌّ للحديد الذي أُسِّسَ عليه المنبرُ الشريف .. واهتزَّتْ قناديلُ الحرمِ فتساقطَ بعضُها وتكسَّر ... وازدادَ العويلُ، وتصاعدت في أرجاء

المسجد أصواتُ النشيج. وبالكاد وجدَ بعضُ مَن أُغمِيَ عليهم، مَن يعتني به .. كان المشهدُ باختصار، أنموذجاً مُصَغَّراً لِمَشهَدٍ آخر أعظم أهوالاً .. يومَ يكون لِكُلِّ واحدٍ مِن بني البشر شأنٌ يُغنيه.

كيف بات الناسُ ليلتَهُم تلك .. الله سبحانه يعلم ... هل أُغمِضَت الجفون .. هل نام أُناسٌ وهم لا يعلمون إنْ كانت هذه النومةُ آخرَ إغفاءةٍ لهم في هذه الفانية .. الله سبحانه يعلم ... منظومةُ الإنذارِ الإلهيّ المبكّر، تُخاطبُ العقولَ والقلوبَ ـ بلا انقطاع ـ منذ أنْ خَلَقَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها ... والمُعَوَّلُ على مَن يُصغي ويُحسِنُ الفهم ... عند الفجر، لم يتأخّر أحدٌ من أهلِ المدينة عن صلاة الجماعة؛ سواء مَن فَهِمَ مبكراً، أو مَن استفاقَ في اللحظات الأخيرة.

ضُحى يومِ الجمعة الخامس من جمادى الآخرة 654هـ الموافق لـِ 5/31/ 1265م ... استندَ خطيبُ

المسجدِ النبويّ الشريف إلى ساريةٍ من سواري المسجد، يتَفَكَّرُ فيما سيقوله في خُطبته .. لم تُسعِفهُ الكلمات ولا الأفكار ... كانت الأرضُ ترجف، فتهتزُّ الحيطانُ والسقوفُ والأخشاب والأبواب، فأنَّى للأفكار أن تنسابَ إلى الذهن، وأيُّ كلماتٍ تلك التي يمكن أنْ تُقال.

وظلَّ القلقُ والترقُّبُ يمارسان مهمتهما الإنذاريةَ، إلى أنْ حان وقتُ تَدَخُّلِ شريكٍ ثالثٍ لهما؛ لا يتدَخَّلُ عادةً إلا قُبَيْلَ حَدَثٍ أكثر قوةً ... الرعب.

فاجأ الأسماعَ والقلوبَ .. صوتُ انفجارٍ كبيرٍ مُدَوٍّ زلزلَ كيانَ كلِّ مَن سمعه .. زلزلَ الجميع.

إنها الحِمَمُ المنصهرةُ في باطن الأرض .. قد وجدتْ لها في قشرة الأرض مَنْفَذاً ... طبقةً رقيقةً من السطح؛ لم تصمد أمام نطحاتِ العملاق الأحمر المتأجّج الذي يقطن في باطن الأرض منذ أزمان ...

الغاضبِ لكثرةِ ما حاولَ الصعودَ إلى السطح، فمنعته سماكةُ قشرةٍ سطحيةٍ يمشي الناسُ عليها ويعملون .. ويأكلون وينامون .. بل ويختلفون ويتقاتلون ... غيرَ آبهينَ لِمَا هو تحتهم.

نَطَحَ العملاقُ الناريُّ مساحةً رقيقةً من أرض (الحَرَّة) ... فتكسّرتْ قِطَعاً متناثرة؛ تاركةً إياهُ ـ وهي مرغمةٌ على أمرها ـ يمدّ قامته الملتهبةَ أمتاراً في الهواء قائلاً: هذا أنا ... لا أنا رعدٌ كما توهّمتم .. ولا زلزال ... أنا البركان.

وما إنْ هبطت الحِمَمُ بعد ارتفاع .. حتى بدأتْ زَحْفَها البطيء المرعب، وهي تُسيلَ الأحجارَ التي في طريقها ... استمرَّت أياماً؛ تمشي مَشْيَها الوئيدَ .. مُغَيِّرَةً كلَّ ما اعتادَ عليه الناس.

تَغَيَّرَ ليلُ المدينةِ حتى صار ـ كنهارها ـ مُضيئاً ... وحاكت النسوةُ بالإبر ليلاً على ضوء النار، لا على

ضوء القناديل ... وتغيَّرَ طولُ أملِ بعضِ الناسِ، فصار قصيراً جداً؛ يُحسَبُ بالدقائق والثواني لا بالشهور والسنين، وهُمْ يراقبون مسيرَ المقذوفات البركانية .. إلى أين ستصل ...

حتى المفاهيمُ والقناعاتُ ... والأوهامُ والظنونُ .. والـ (نحنُ) ... والـ (هُمْ) ... والـ (أنا) التي تضخّمت عند بعض الناس حتى صارت أكبر منهم ... كلُّ ذلك تغيَّر.

اقتربت جحافلُ النيرانِ من الوصول إلى مشارف المدينة .. فخالطَ الدمعُ الدعاءَ ... واشتدَّ وَجيبُ القلوبِ حتى باتَ يقرعُ الرؤوسَ من داخلها؛ نبضاً مؤلِماً ... وكادت الحناجرُ التي تصرخُ طالبةً الفَرَجَ مِن رَبِّ السماوات والأرض، أنْ تتشقَّقَ لشدةِ ما أقرَّتْ واعترفت ... زالت الأقنعة، وعلا النشيجُ، وسجدت الجِباهُ للحيِّ القَيُّوم.

وفي لحظةٍ .. أَمَرَ قَيُّومُ السماواتِ والأرضِ النارَ أن تَقِفَ .. وانقذافَ المصهورِ الناريِّ من فَمِ البركان أنْ يَكُفّ .. والحِمَمَ الزاحفةَ أن تَثبُتَ مكانها.

مَنَّ المنَّانُ بالفَرَج .. فلهجَت الألسنةُ والقلوبُ بِحمده سبحانه .. وعَمَّ الفرحُ المدينةَ المنوَّرة ... وسجدَ العابدون؛ حامدين باكين، وقد اطمأنَّت قلوبهم بِذِكْرِ الواحدِ الأحد.

على بُعْدِ مئات الأميال مِن مَوقعِ الحَدَث ... وفي مدينةِ بغداد .. توقَّفَ أيضاً فيضانُ النهرِ الذي حدثَ أثناء محنة طِيبة ... بعد أن أغرق النهرُ دُوراً كثيرة .. وبَلَغَ دارَ الأميرِ فدخلَها.

وعلى بُعْدِ مئات الأميالِ أيضاً ... استغربَ راعي إبلٍ مِن أهل بُصرى ... أين ذهبتْ تلك الإنارةُ الهائلة التي كانت أعناقُ إبلهِ ـ بسببها ـ تُرى أثناءَ الليل على البُعد.

في وقتنا الحاضر .. جلسَ شابٌّ جامعيّ في مسجدٍ صغير بإحدى المدن الأوربية؛ يقرأ حديثَ خاتَمِ الأنبياء والمُرسَلين محمّد صلّى الله عليه وسلَّم .. الذي أخبرَ عن نارٍ ستظهر في الحجاز؛ تضيء لها أعناقُ الإبلِ بِبُصرى ... أخبرَ عن ذلك قبلَ حدوثه بأكثر من ستمائة عام.

الحكايات

الكازينو	5
فائز	13
الذوّاق	35
مصل الحقيقة	43
فيروس	57
عائلة جدول الضرب	77
قصص قصيرة جداً	81
بانتظار فرج	85
هي	107
نشاء وسكر	115
قرار بالهدم	129
نار الحجاز	159